كتب قومية

نحو ثورة ثقافية

بقلم
عبد المغنى سلام
إبراهيم بسيونى

كتب قومية

نحو ثورة ثقافية

بقلم
عبد المغني سلام
و
إبراهيم بسيوني

من اقوال الرئيس الرائد :

« الثقافة تعبير عن فكر الشعب من اجل حياة حرة سليمة »

***

« ان منتهى أحــــلامى مذ كنت طالبا أن أرى بلدى وقد توقف فيها استغلال الانسان للانسان »

***

« إن الثورة الثقافية هى التى تكسب الثورتين السياســـية والاجتماعية القوة والحركة والتدعيم ، ولا يكون ذلك الا بأن يتيح المثقفون الفرص الممكنة لتقدم وتطور من لم تتح له هذه الفرص »

***

« الثقافة تعبير عن كفاح الشعب ، لان جيش الثقافة هو مجموع الشعب بفلاحيه وعماله وطلابه وتجاره وكل فئاته »

***

« كان نجاح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ انما يعنى ان الشعب قــد اختار لنفســه نظاما سياسيا جديدا ونظاما اجتماعيا جديدا وثقافة جديدة أيضا »

— ١ —

ثلاث ثورات ولكن الجوهر واحد

أهلى هناك .. فى القرية ، قوم بسطاء معظمهم من الفلاحين والعمال والاجراء ، عشت بينهم طفولتى وصباى وشبابى ، وتفتحت عيناى على امثلة فطرية صادقة للجد فى العمل والوفاء للنـــاس وللارض .. تبدأ حياتهم اليومية بصلاة خالصة لله قبـل الشروق ، وتستمر نهارا كاملا فى كفاح وكدح وعمل دائب موصول ، ثم يعودون فى أعقاب الغروب الى اكواخهم ، ليعيشوا فى حجرات ضيقة مظلمة ، تختلط أصواتهم بأصوات حيوانهم ، ولا يمتد بهم السهر والسمر طويلا لما عانوه من ارهاق طوال اليوم،فما أن تذبل «الفتيلة» البــاهتة فى الكوة الصغيرة حتى يكون الجميـــع قد اســتسلموا للصمت والنوم . ويطبق على القرية جميعها ليل ساكن داكن الى أن يقبل الشروق ..

كنت أرقب هذه الحياة الدائبة التى لا تعرف الكلال ، وكانوا يرتقبون أن يحظوا بثمار جهودهم عندما يقبل موسم الحصاد .. ولكن هذا الموسم كان يحمل معه فى اغلب الاعوام الغصة والالم ، فتزيد أحوالهم سوءا على سوء .. وكنت فى كثير من الاحيان أعـود الى القرية فى وقت الحصاد ، لاتابع ما صارت اليه أمور قومى عاما بعد عام ، ولكن المنظر كان دائما يتكرر ويعيد نفسه ... تعبأ الزكائب بالقمح النظيف المغربل ، ويقبل ناظر العزبة ليتأكد من نقاوته ثم يشرف على عملية الوزن ثم يسجلها عنده فى الدفتر الكبير ، وتمضى

الحمير حاملة الزكايب الى مخزن « البيه » صاحب العزبة ، وهكذا يمضى اليوم الاول . وفى صباح اليوم التالى يعود الناظر مرة أخرى ليقدر الفرق بين المطلوب وبين المحصول ثم ليقدر ثمن الماشية .. أما الزوجة والاولاد فانهم يعكفون على جمع الحبوب اللاصقة بأرض « الجرن » ليجففوها بعض الوقت وليحملوها ممزوجة بالطين الى بيوتهم .. وذلكم ما بقى لهم من المحصول .. وذلكم هو موسم الحصاد فى قريتى ، كان دائما خاتمة حزينة لقصة طويلة مضنية .

وكثيرا ما كنت أشهد « عم محمد الرهوان » فى مثل هذه الايام وهو ينتقل بين الفلاحين والحقول والبيوت ، والصيحة تتردد فى حلقه كالحشرجة « وما ربك بغافل ... وما ربك بغافل » وكانت صيحة الرهوان تملأ دماغى وقلبى وصدرى ، كأنها صوت يأتى من وراء الغيب ، وعندما كنت أعود الى القاهرة لأبدأ عاما جديدا من أعوام دراستى الجامعية كنت أشعر أن صيحة الرهوان تزداد عنفا ، وأنها أمانة باهظة تلقى على كتفى القاء ، وتهيب بى أن أصنع شيئا .. ولكننا - علم الله - كنا نصيح صيحة الرهوان خلف أسوار الجامعة ، حينما كان السلطان يضرب بيننا وبينها بسور من الحراس والسلاح ليس له باب ، ولم يكن هذا الحصار ينفتح وينهار الا أمام العربات الانيقة الفارهة التى تحمل من يملكون ثمن العلم ، ونظل نرقب من بعيد قبة الجامعة وهى لا تحتوى تحتها الا القادرين ، أما نحن الفقراء ، فقد كنا ندفع فدية العلم من أحزاننا وأسانا ، ولو استمعت الى وجيب قلوبنا ونحن عائدون الى بيوتنا آنذاك لاستمعت اليها تدق فى يأس آمل ، وأمل يائس « وما ربك بغافل .. »

كانت القرية والمدينة ترقبان طلوع الفجر ، وكانتا تؤمنان بطلوعه حتى فى أشد الليالى عتمة وسوادا ، وكانت بشائر هذا الفجر تلوح على مرأى العين كلما قويت فى النفوس احساسات الضيق ، وعندما بدأت هذه الاحساسات تعم طوائف الشعب أخذت تتجمع رويدا رويدا كأنها فلول تستعد لانقضاض وشيك ، فى موعد مضروب .

ودنا الموعد المحدود .. وطلع الفجر .. واذن المؤذن فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بهذه الصيحات :

- القضاء على الاستعمار واعوانه
- القضاء على الاقطاع
- القضاء على الاحتكار وسيطرة راس المال على الحكم
- انشاء جيش قوى
- اقامة عدالة اجتماعية
- اقامة حياة ديمقراطية سليمة فى ظل مجتمع اشتراكى ترفرف عليه الرفاهية .

كانت تلك خيوط الفجر الابيض الذى طلع على الحياة والاحياء بعد ليل طويل كئيب ، ولقد رأى الشعب فيها حيويته لحظة الميلاد ، ذلك لان الحياة فى الكائن الحى تدين بوجودها الى عامل الهدم وعامل البناء ، ولو توقف أحدهما او تعثر أصاب البدن عارض أو موت ، وهذا التلازم بين « القضاء على .. » وبين « انشاء ... » فى الخلايا الحية الاولى التى نمت عنها ثورتنا فيما بعد هو سر التدفق الخلاق والنمو السليم والتدرج الطبيعى فى التوفيق الذى اصابته ، والذى جنبها فيما بعد الانتكاس أو العجز ، بل ان ذلك قد ساعدها على ان تكتسب من طاقة الشعب الكامنة مزيدا من القوة « لتقضى على ... » و « تنشىء ... » وهكذا كان وجهها يزداد اشراقا وتألقا ، وأثبت الشعب من خلال العشر سنوات الماضية أنه قادر على أن يصنع لنفسه ـ مرة أخرى ـ كما صنع للبشرية من قبل تاريخا جديدا وحضارة ناهضة .

لقد قامت ثورات فى بلاد أخرى بعيدة عنا أو قريبة ، وواتتها ظروف كان يمكن أن تساعد على نجاحها ، ولكن هذه الثورات أخفقت على مر الزمن وانتكست ، لان الطبع الثورى فى شعوبها

ليس خلاقا ، فلم يسبق لها فى التاريخ ان تقود فكرة او تنشر دعوة، اى لم يسبق لها ان تفكر فى « الانسان » وقيمه ومثله وأهدافه ..

عرض سريع ..

وسأعرض فى بداية حديثى لعلامات الطريق المميزة التى برزت من خلال الكفاح السياسى والكفاح الاجتماعى ، لاخلص من هذا الى السمة الرئيسية التى تميز ثورتنا السياسية وثورتنا الاجتماعية ، وسنرى التقاءهما فى أصل واحد ، متغلغل فى أعماق شعبنا ، منذ خلقه الله ، ومنذ كانت له حضارة ومدنية على ضفاف هذا النهر العظيم ..

طرد الشعب الملك ، ومضى بعد ذلك يجابه احتلال ثمانين الف جندى بريطانى ، أعانتهم سبعون سنة على أن يطبقوا من حول أعناقنا بقبضة من حديد ، وأعانتهم كذلك على تفهم نقاط الضعف فى بعض صفوفنا ، فمكنتهم من خنق كل انطلاقة ووأد كل كفاح ، وصار اجلاؤهم عن ديارنا حلم الجد والاب والابن ، وكم أقحمونا معهم فى مناورات ومفاوضات ومساومات كانت كلها مسرحية واحدة لا يتغير فيها الا الممثلون ، وكان الشعب يرقب هذه المسرحية بوعى يقظ ، ويتنبأ بنهايتها بمجرد ان ينفتح الستار ، وكان عقب كل مرحلة كفاحية يقدر ما أصابه من غنم وغرم بميزان دقيق، فبينما طبل المفاوضون عام ١٩٣٦ بمعاهدة الشرف والامتياز ، همس الشعب همسته الناقدة الساخرة بهذا الشرف وهذا الامتياز،وأثبتت حقائق التاريخ فيما بعد أن الذين وقعوا هذه المعاهدة هم الذين حملتهم دبابات الانجليز فى عام ١٩٤٢ الى كراسى الحكم ، وهكذا فيما سبق ذلك من مراحل الكفاح ، وما تلاه من مراحل أيضا . أثبت الشعب أن لديه فطانة فاهمة يسير بها نهايات النضال .

ولما كانت ثورة ١٩٥٢ قد أعادت للشعب مقاليده وصار المفاوض ممثلا حقيقيا للشعب ، فقد بدا واضحا أن القدرة الشعبية المواجهة

للعدو قد أصبحت فى كامل قوتها ، وأن الصفوف قــد اكتملت وتراصت ، وان الحجة لم تعد بليغة فحسب بل وقاصمة أيضا ..
ولهذا فقد أفلح الشعب فى ان يطرد المستعمر لا مرة واحدة فى ١٨ يونيو ١٩٥٦ بل مرة ثانية فى ديسمبر من نفس العام ، ولم يكن فى هذه المرة وحده ، انه عاد ليحمل فى قلبه حقدا متأججا أسود يكفى لنسف كل الاستحكامات ، وعاد ليصحب معه دولة كبرى تبزه حقدا ، ودويلة كريهة تفوقهما نذالة وخسة ، ومع ذلك كله . صمد الشعب ، واستجمع ألويته ، وعقدها لقائد الثورة ، وخاضا معا الشعب والقائد معركة بدت فى ظاهرها معركة سلاح ، ولكنها فى حقيقة أمرها معركة مبادىء وأخلاق ومثل ..

وكان الموقف يتلخص فى ان أمة صغيرة العدد والعدة تقــاوم لا من أجل نفسها بل من أجل عنصر الانسان ومن أجل الاهداف النبيلة – أمما كبرى تفوقها عدة وعتادا وعددا .. وكان هذا الموقف وحده كسبا كبيرا لشعبنا ، أمده بذخيرة هائلة كى ينتصر الحق على الباطل . وأكسبه عطف المفكرين والاحرار والشرفاء فى كل مكان من العالم .

ولم يهدأ الاستعمار .. بل مضى يتفنن فى حــروب والاعيب ومؤامرات ، الشائعات والدعايات الباطــلة . والاذاعات السرية والعلنية ، والحروب النفسية ، والحصار الاقتصادى والتجويع . والعروش العربية الوالغة فى تاريخ الخيانة ، والنفوس المريضة التى نذرت لبيع الشعوب عند قبض الثمن .. ولكن شعبنا قد أفاد من خلال هذه المعارك فائدة كبيرة : انه أصبح قادرا على تمييز الصديق من العدو ، وعلى تبين الحق من الباطل ، وعلى تحديد هدفه وسط ضبابات المعركة .

اثبتت الايام قدرة شعبنا بعد قيام الثورة على أن بامكانه ان يحيل الهزائم الى انتصارات ، ففى ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ استطعنا ان نقضى على أسطورة توازن القوى فى الشرق الاوسط ، وعلى

احتكار الغرب للسلاح فعقدنا صفقة الاسلحة مع الكتلة الشرقية في ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥ ، وكان مجرد الاتجاه الى تلك الكتلة في تلك الظروف دليلا على ان شجاعتنا في تقدير مصلحتنا والعمـــل من أجلها أقوى مما يتوهم الواهمون .

وفي ٢٠ يوليو ١٩٥٦ حين سحبت الولايات المتحدة وبريطانيا عرضهما للمساهمة في تمويل السد العالي أمكننا ان نستلهم عروبتنا في الرد على هذه المؤامرة بصفعة قوية عارمة ، فلم يكد يمضي أسبوع واحد حتى أعلن الشعب ان السن بالسن وان العين بالعين وان القناة عادت لنا !!

وفي نوفمبر ١٩٥٨ أرسى الرئيس دعائم الثورة الاجتماعية في الخطاب الذي القاه في الدورة الرابعة للمؤتمر التعاوني ، افاض الرئيس في الصورة التي يتمناها للمجتمع ، والاسس الاشتراكية الديمقراطية التعاونية التي ينبني عليها ، ووضح منذ الوهـــلة الاولى أن هذه الاسس منبعثة من تجاربنا وتطور كفاحنا ومن وحي عقائدنا وتاريخنا الروحي ، ولقد تميز خطاب الرئيس باتجاه جديد. فلم يعد خطاب رئيس الدولة مصطبغا بالاماني العـــذبة الممزوجة بالخيالات كما كان في الماضي ، بل انه يتحدث بالارقام عن برامج التصنيع ، ومضاعفة الدخل ، وطرق تمويل المشروعات ، كمايتحدث عن العقبات التي تصطدم بالتنفيذ في صراحة وبلا مواربة .

واذا كان المواطن العادي ينفعل بموقف معين يطغى على ماسواه من المواقف ، فان القائد الذي حمل المسئولية الكبرى كان دائمــا أشبه بقائد السفينة الذي يحرص على ان يطمئن على ان كل جهاز وآلة بالسفينة تعمل عملها بلا خلل ولا اضطراب ، فيعطي كل شيء صغر أو كبر قدرة من الأهتمام والملاحظة ، لهذا لم يصرف الاصلاح الداخلي نظر الرئيس القائد عن المهمة الكبيرة نحو ســـياستنا في المحيط العربي والمحيط الافروآسيوي والمحيط العالمي ، والمتأمل

فى المبادىء الجوهرية التى حملنا رايتها فى هذه المجالات يدهشه حقا انها تكاد تلتقى مع أصول المبادىء التى آلينا على أنفسنا تحقيقها فى تنظيمنا الاجتماعى الداخلى .. فكما نادت الثورة الاجتماعية بأن الأوان قد آن لان يرفع المواطن رأسه عزة وكرامة ، وان ترد الحقوق السليبة الى أهلها ، وان يحيا الفرد حياة كريمة لائقة ، وان تنمحى عن الارض وصمة الاقطاع ، وان ينزاح عن كاهل المحروم أرزاء الفقر والجهل والمرض .. وعلى الجملة نادت المبادىء الاجتماعية بأن **ترد للانسان كرامته** .. كذلك نادت المبادىء السياسية فى محاورها المختلفة نفس النداء ..

فعلى الخط الممتد من باندونج فى أقصى الشرق الى الدار البيضاء فى أقصى الغرب نجد على كل نقطة من هذا الخط الطويل وقفة انسانية متمهلة تستصرخ الضمير البشرى ان ينهض بنصرة الشعوب المظلومة ، وان يغلب القيم والمثل ، وان يطارد اشباح الجشع والطمع ، وأن يعود للشعوب امتلاك مصيرها والتحكم فى خيرها ، ولقد عبرت مؤتمرات باندونج وبريونى وأكرا والدارالبيضاء وبلجراد عن ذلك كله ، وتشبثت به ، وعبرنا نحن عنه وتشبثنا به فى زيارات الرئيس الرسمية الى الهند واليونان ويوغوسلافيا والسودان والمغرب وغيرها .

وعبرنا عنه وتشبثنا به أمام الوفود التى زارت بلادنا زيارات رسمية وغير رسمية .. نقف الى جوار الجزائر وفلسطين بنفس الحماس والقوة والاصرار التى نبديها بالنسبة للكونغو ، والتى نبديها ازاء التفرقة العنصرية فى افريقيا ، والتى نبديها ازاء قضية برلين ، ذلك لان الطابع الانسانى هو أخص الخصائص لاتجاهنا فى السياسة العالمية والافريقية والعربية ، وفى خطاب الرئيس امام الجمعية العامة فى الامم المتحدة يتجلى شمول النظرة فى هذه السياسة ، فلم يقف الرئيس ليتحدث عن المشكلات التى تعانى بلاده منها فحسب ، بل مضى كأنه ضمير الانسانية يوخزها ويثيرها

ويدعها الى الخير والسلام ، ويناشـــدها أن تقلع عن دورها الخفى والعلنى فى مؤازرة الاستعمار ضد الشعوب الصغيرة ، وان ما يراد لشعب الكونغو من تمزيق وتفتيت ينبغى أن يعيد الى الذهن ما أريد لشعب فلسطين من تضييع وتشريد ، ولم يكن أحد فى الامم المتحدة يتوقع أن يسمع من سياسى أكثر مما سمع من عبد الناصر فى هذه الشئون ، لانه الرجل الذى ابتلى بكل أفانين الاستعمار ظاهرة وخافية فصمد لها جميعا ، وفضحها وقاومها بأسلوب أدهش خصومه قبل اعدائه .

ولقد أدى المفهوم الشامل لمعنى السياسة العالمية أن يعلن الرئيس فى عزم واصرار « ان كلمة الســلام أو كلمة الحرب ليست ملكا للدول الكبرى وحدها ، وانما الجنس البشرى كله هو الذى يملك الكلمة العليا » . السلام هو الامر الوحيد الذى ننحاز فيـه ولا نحايد ، ونريده قائما على العدل دون تفرقة أو تمييز »

ويستطرد الرئيس فى نفس الخطاب فيقول « ومن حق العالم ان يأمل بأن تؤدى الدورة الحالية للامم المتحدة الى نتائج ايجابية فى تصفية الاستعمار والتمييز العنصرى الذى يعتبر انـــكارا للانسانية وللحضارة والكرامة الانســـانية ، كما تؤدى الى اعادة الحقوق المغتصبة لشعوب فلسطين والجزائر والكونغو وغيرها من البلاد التى ما زالت تعانى من آثار الاستعمار ومؤامراته وأن تؤدى أيضا الى اقرار السلام وتوجيه الجهود نحو التنمية الاقتصادية ورفاهية الشعوب التى تجاهد للوصول الى مستوى المعيشـــة **اللائق بكرامة الانسان** »

وضح اذا ان موقفنا من المشاكل الاجتماعيـــــة فى الداخــل لا يختلف كثيرا عن موقفنا من المشاكل السياسية فى الخارج ، واننا نستلهم فى الموقفين فكرة واحدة ، أن تحقق للانسان مستوى يحفظ له انسانيته ويصون كرامته .

وفى ذلك يقول الرئيس فى خطاب افتتاح اللجنة التحضيرية

مؤتمر القوى الشعبية ، لن أستطيع التوقف الا اذا توقف استغلال الانسان للانسان »

وهذه النزعة الانسانية التى اصطبغ بها تفكير الرئيس القائد كانت دائما أكبر العوامل فى نجاح دعواته ، وكانت دائما تستحوز على التقدير والاعجاب ، واجتذاب الاصدقاء والانصار فى كل بقاع الارض ، ذلك لانها دعوة تريد الحق كل الحق ، وتريد السلام لبنى الانسان على أساس من التحرر والعدل واحترام كافة الحقوق .

ولقد صدق المؤرخ العالمى آرنولد توينبى حين أعلن « ان التطور السياسى والاجتماعى فى الجمهورية العربية المتحدة يعد ثورة انسانية عالمية » .

ولكى أوضح للقارىء مدى انسانية دعوتنا أسوق هنا بعض الفقرات المقتطفة من تعاليم الصهيونية كما أثبتتها مواثيقهم ، حتى تثبت المقارنة عداوة الصهيونية للجنس البشرى بأسره لان ذلك يشفى حقدها ويخدم أغراضها ·· تقول مواثيقهم :

« لا أخلاق فى السياسة ، والحاكم الذى يخضع لقواعد الاخلاق ليس بسياسى ماهر ، ويبقى دائما مزعزع الحكم ، يجب على الحاكم ان يلجأ الى الحيلة والنفاق ، لان فى السياسة تستحيل الصفات الانسانية من أمانة وصدق الى رذائل تؤدى الى السقوط »

« اعطنى ما أنا فى حاجة اليه كى أثبت لك اننى أفوقك قوة »

« يجب ألا نعلق أهمية على ما هو طيب وخلقى بقدر ما نعلق من أهمية على ما هو ضرورى ومجد »

« ان قوة الجماهير لا تبصر لأنها مجردة عن التمييز » ·

« الاحزاب فى بلاد الأعداء تولد العطش الى السلطة والجاه والمنازعات ، لأن خطة الشعب قد تقسمت الى أجزاء يعادل عددها عدد الافكار المتباينة » ·

« ان الجماهير متوحشة ، ولا تمر فرصة الا وتثبت ذلك فما أن يشعر الشعب أن حريته قد أصبحت مكفولة حتى يبادر فيحولها الى فوضى هى فى الواقع الوحشية فى أبشع صورها » .

« يجب أن يكون شعارنا : جميع وسائل القوة والنفاق ، لأن القوة المحضة هى التى تنتصر وحدها فى السياسة ، والبطش هو المبدأ .. فعلينا ألا نتردد أمام شراء الذمم والغدر والاحتيال اذا كان ذلك يخدم قضيتنا » .

« لقد راح الجهلة دون وعى يرددون كلمات الحرية والمساواة والاخاء .. وهى لا تعدو أن تكون كلمات مجوفة لأنه ليست هناك مساواة فى الطبيعة فقد خلق الناس مختلفى الذكاء والطباع والمقدرة »

« الحية الرمزية هى شعار شعبنا ، وباكتمال دائرتها نطوق بالسلاسل ما نريد » .

« اذا تولينا السلطة فيجب أن نمحو كلمة الحرية من المعجم البشرى باعتبارها رمزا لسلطة وحشية من شأنها أن تحول البشر الى وحوش ضارية ولن تهدأ هذه الوحوش الا برؤية الدماء ، وعندئذ يسهل ترويضها واخضاعها » .

« ينبغى أن ننزع من أذهان الناس فكرة الله ونستعيض عنها بالأرقام الحسابية والمطالب المادية » .

« سنشرع فى تنظيم احتكارات عظمى ، بحيث تستوعب الثروات الضخمة لغير اليهود بشكل تزول معه هذه الثروات الاخيرة نهائيا .. لأن قوة رأس المال تفوق قوة التاج » .
« سنحرض عمال الاعداء على شرب الخمر حتى يشيع الضعف والفوضى بينهم » .

« علينا أن نحرض أوروبا على الفتنة والانشقاقات والعداوات » .
« علينا أن نرد على أى دولة تجرؤ على اعتراض طريقنا بدفع الدولة المجاورة لها على اعلان الحرب عليها ولكن اذا ما قررت الدولة

المجاورة بدورها أن تتحد ضدنا فيجب علينا الرد عليها باشعال حرب عالمية » .

هذه نماذج لتعاليم الصهيونية، ترى من خلالها كيف انطمست المعانى الانسانية فى حمأة الخسة والنذالة والجريمةوالخيانة والفتنة وليس بمستبعد بعد ذلك أن تشهد الصهاينة وهم يسلكون فى الحياة مسلك العصابات المتآمرة لا من أجل حضارة انسانية منشودة بل من أجل تدمير شامل للانسان ومبادئه .

وبعد ...

فاذا كان الانسان هو محور ثورتنا الاجتماعية وثورتنا السياسية فانه ملاذ ثورتنا الثقافية ، عليه تعتمد ، ومن أجله تقوم ، انه الداعية الامين الذى يناط به تجاوز حدود ذاته ليحمل لمن حوله رسالة الحب والخير ، ويمكن القول ان الثورة الثقافية ذات وظيفتين .. وظيفة التمهيد ، ووظيفة التدعيم ، فحين نجحت ثورة ٢٣ يوليو كان نجاحها الاول ثقافيا لأن ما نجح فى بداية الأمر ولاقى تأييد الشعب ، وألف بين القلوب ، كان فكرة الثورة ، تلك الفكرة التى ظلت حبيسة العقول والقلوب والصدور .. يراد لها فى فجر ذلك اليوم أن تنطلق الى أبعد الآماد ، ولكن هذا الانطلاق الفكرى فىحاجة الى التدعيم ، لأن اقتلاع الرواسب واحلال بديل عنها ، ولأن فتح النوافذ للضياء ، ولأن الأخذ من المتخم ليعطى المحروم ، ولأن اتاحة الفرص لمن افتقروا اليها .. كل ذلك فى أشد الحاجة الى فكر متجدد ودعوة واعية وجهد موصول .. ولا يكون ذلك بيد قائد الثورة وحده ، ولكنه لن يتحقق على الوجه الأكمل الا اذا حمل كل فرد فى الأمة نصيبا من المسئولية بمقدار ما يتطلبه مجال عمله فى الحياة ، وبمقدار ما يناسب صلاحيته لأن يصبح ثائرا ومصلحا وقائدا .. وهذا ما قام هذا الكتاب من أجله ..

(٢)

معنى الثورة الثقافية

من المثقف ؟ ..

انه في تقديرنا من يتميز بصفات ثلاث :

١ ـ الوعى ٢ ـ الاخلاص ٣ التأثير

ولا تكفى واحدة من هذه الصفات لقيام الثقافة ، بل لابد لها جميعها أن تكتمل وتتضح ليصبح الفرد أهلا للوصف ، وسنقف عند كل صفة منها وقفة متمهلة .

١ ـ الوعى

وأقصد به أن يكون الانسان على حظ من الاحساس بالحياة يفوق القدر المشترك بين الناس جميعا ، أى أنه يتسم بخصوصية الانفعال بأحداث الحياة كأنه يحيا فى تجربة.. وهذا الانفعال ليس شرطا أن ينبعث من التعلم ، انما هو تيقظ فطرى يدرب على المرونة والاستجابة والمشاركة ، وهذا التيقظ قد يغذيه العلم وقد لا يغذيه ، وانما المهم أنه موجود فى الطبع منذ سوته يد الله .. ولكى أكون واضحا أسوق مثلين : جامعى نال حظا من العلم ، وحصل على أرقى الاجازات الدراسية التى تمنحها الدولة ، يذهب الى قريته فى عطلة فلا يكاد يبرح بيته ، وانما يغلق بابا بينهم وبينه ، اما ليواصل الدرس والمطالعة واما لينصرف الى بحث مشاكله الخاصة فى أضيق الحدود وبمقدار ما يهمه وحده دون سواه .. فهو لا يختلط بالناس ولا يجالسهم ، ولا تزعجه أحزانهم ومشاكلهم ، ولا تسعده أفراحهم وآلامهم ، ولا تؤرقه أحلامهم ، ولا ينقل اليهم علمه الذى علم ، ويضن

بخبرته عن أن تنتقل من حدود سطور الـكتاب الى واقع الحياة ، يمشي فيالقرية فلا تؤذى مشاعره الطرقات الضيقةالمتعرجة والبيوت الداكنة المظلمة والوجوه الشاحبة من أثر الامراض المتوطنة ، يستمع الى صرخات المعذبين من الملاك المستغلين والمرابين الجشعين فلا يحرك ذلك منه ساكنا ..

هذا الشخص قد تعلم ولكنه لم يتثقف ، نمـا عقله فى حدود ذاتية ، وانحبست عواطفه في دائرة أنانيـة .. فالثقافة اذا فى مفهومنا ذات طابع **انسانى** ، فيها مشاركة وجدانية مع الآخرين ، فيها عواطف متبادلة ، فيها أثر وتأثير وتأثر ، فيها خروج منالقشرة الفردية الى المحيط الخارجى .

مثل آخر .. حدثتك عنه فى بداية هذا الكتاب لمعنى مقصود.. هو عم محمد الرهوان .. رجل أمى لا يقرأ ولا يكتب ، لكنه عميق النظر ، دقيق الحس ، تلمح فوق جبينه وتحت عينيـه آثار تفـكير حاد دائب ، اذا حدثك أدركت أن كل مواطن فى القرية يشغله .. والمستقبل الذى ينتظر القرية يقض مضجعه ، والجفاف سيـهدد زراعة فلان ، والدودة قد أكلت قطن فلان ، وصاحب العزبة قـد استولى على محصول الذرة بكامله ولم يترك لفـلان حبة واحدة .. ماذا سنصنع ؟ وكيف نتصرف ؟ وهكذا يمضى بين الناس والحقول وفى المسجد اذا قضيت الصلاة ، كأنما هو نبى يبشر بفـكرة .. ويؤلب على عدو ، ويدعو الى رحمة ..

وأشهد لقد كانت تجمعنى به ندوات رمضـان ، فأظل أنصت اليه بشغف زائد وهو يتحدث عن الانجليز وأفندينا يده الفاجر و « الكنال » وهتلر .. وكانت تجذبنى اليـه بساطة الاسلوب .. واصالة الفكرة وعمق النظرة ، والتأثر الشـامل بأحداث الحيـاة من حوله ..

واذا فليس التعلم شرطا فى تكوين الثقافة ، اذا لم يكن العلم فى خدمة المجتمع ، لانه عندئذ لا يعدو أن يكون حملا للـكتب بلا وعى ولا تفقه .. وقديما عبر أحد أسلافنا عن هذه الحقيقة حين جاءه من

يقول له أن فلانا قد حفظ كتابك عن ظهر قلب ٠٠ فرد ساخرا :
وماذا في ذلك ؟ لقد زادت نسخة فى المدينة ٠٠

حقيقة ان التعلم يختصر الأبعاد والأزمان التى تحصل فيها التجربة ، ولكن تظل مجابهة الحياة وملامستها ، والانفعال بأحداثها وتجاربها ، أقوى وآكد فى تحصيل المعرفة ، وان كان ذلك يحدث بمعاناة وممارسة قد تستغرق الوقت الطويل ٠

٢ ـ الاخلاص

اذا اتجه وعينا نحو الآخرين ، وفكرنا بعقلية الآخرين وانفعلنا بحيواتهم ، وأحسسنا بالقدرة على التنازل عن رغباتنا الشخصية عند ماتصطدم بالصالح العام ، وكان فيإعتبارنا دائما هدف الجماعة وذابت أحلامنا الذاتية ومنافعنا الفردية عند تصور هذا الهدف ٠٠ وشعرنا بسعادة جارفة لوقع هذا التنازل ، وهذا الذوبان فى كيان المجموع فنحن اذا مخلصون مؤمنون خليقون بأن نحمل مسئولية القيادة الجماعية اذا اقتضت الظروف ذلك ٠

ولابد أن يكون هذا الاخلاص عميقا وموصولا ومنعشا لنفوسنا٠ لأنه اذا لم يكن الاخلاص نابعا من أعمق أعماقنا ، فان أول اصطدام بعقبة من عقبات الطريق ـ وما أكثرها ـ سيزلزل قلوبنا ، ويهددها باليأس ٠ كما أنه لابد أن يكون اخلاصنا للمجموع عن طواعية ، وأن يكون باعثا من بواعث السعادة التى تنعش القلب ، وأن تصبح الابتسامة على شفاه المحرومين أقوى أثرا فى نفوسنا من تحقيق مغنم شخصى ، فاذا استطعنا فى محيط البيئة ـ صغرت أو كبرت ـ أن نقدم لقمة لجائع أو كتابا لجاهل أو فراشا لمريض ٠٠ فانأداء الرسالة فيذاته شفاء وغناء ، تهون بجانبهما كنوز الارض٠

والذين يحملون أنفسهم هذه الامانة يتغاضون دائما عن تفاهات الحياة ، لانهم حين وهبوا انفسهم للجماعة هانت عليهم الصغائر التى يتعادى ويتقاتل عليها المتكالبون الانانيون ، انهم بعد ان اكتشفوا ذواتهم وسبروا ايمانهم وحملوا انفسهم رسالة رأوها جديرة بالوفاء قد تعلقوا بالمرادات الكبيرة وارتقوا الى مستوى عال من الترفع ، واكتسبوا ارادة حديدية صلبة لا تزيدها الخطوب الا

عزما وتصميما ومضاء ، وتعجب من أمر هؤلاء فى أوقات المحنة ، فترى ابتسامتهم أكثر اتساعا وأشد تألقا ، وصوتهم اكثر عمقا واصرارا ، وبهذا يكون فى قدرتهم ان يحيلوا الهزيمة الى نصر ، والتضليل الى حق ، ورنين القيود الى لحن عذب أخاذ ، ولقد مرت بوطننا أحداث ضخام ، وشهدنا كيف صنعنا القوة من حيث اراد العدو لنا الضعف ، وتماسكنا حين أراد لنا التفكك ، والتففنا حول القيادة الواعية المخلصة فى لحظات حرجة اختارها العدو ودبر لها وسعى حثيثا لاغتنامها ، ولكن خاب فأله .. لانه لا يدرى ان قيادتنا لا تبغى من وراء الدعوة الا احقاق الحق وازهاق البـــاطل ، وان شعبنا قد آمن بهذه القيادة ، وأخلص لها واستعد لان يخوض من ورائها البحر والجو ، والسهل والوعر .

٣ ـ التأثير

قد يملك المرء وعيا ناضجا ، واخلاصا متينا ، ولكنه لا يملك ان ينقل لمن حوله ما يعيه أو يؤمن به ، وعلى هذا تكون الخاصـــية الجماعية فى ثقافته واهنة ، وتتهدد هذه الثقافة بأن تتحوصل فى داخل ذاته ، وتبقى الافكار الرائعة المؤمنة حبيسة فرديته .

وعنصر التأثير فى المثقف هو الذى يمكنه من الخروج الى المجتمع، وحثه على فهم قضاياه ، وما دام الاخلاص شرطا فى الوعى فلن يكون التأثير فى الجماعة ساعتئذ من قبيل التهريج ، بل هناك فى اعتقادنا ما يسفر عن خبيئة المرء مهما حاول الاخفاء ، فالمضلل المغرض يستطيع ان يخدع كل الناس بعض الوقت ، ويستطيع ان يخدع بعض الناس كل الوقت ولكنه عاجز عن خداع كل الناس كل الوقت .. ولقد ابتلينا فى الماضى بزعماء أوتوا حظا كبيرا جدا من الوعى وحظا كبيرا جدا من التأثير ولكن الاخلاص كان ينقصهم ، فكان ذلك ينعكس على قدرتهم وعلى استمرارهم فى التأثير الخلاب المضلل ، وكانت الايام تكشف عن ختلهم وخداعهم ، حالما تنحسر عن الالفاظ

المزخرفة المبرقشة الاقنعة الصناعية الجذابة ، كانت شعارات الديمقراطية والحرية وحكم الشعب والاستقلال التام ومعاهدات الشرف والامتياز، والتحالف الصديق مع بريطانيا الصديقة.. كانت كلها زائفة ، ولم تكن تلقى من المواطن العادى الا السخرية والازدراء لانه لم يكن يحس بامتداد هذه الشعارات الى واقع حياته ، ذلك لان الطبيب لا يستطيع ان يشفى مريضه ، بالخطب العصماء والكلمات الجوف .

والمثقف بحكم دوره الطبيعى يصل الى التأثير بأداتين هما الاقناع والاستمالة .. الاقناع هو مخاطبة العقل بالحجة والفكرة والدليل ، والرقم والاحصاء ، والمقارنة والدراسة الجادة والتخطيط للمستقبل فى ضوء الماضى والحاضر .

واما الاستمالة فهى مخاطبة العاطفة والتأثير فيها .

وبعض جوانب المجتمع فى حاجة الى الاقناع وبعضها الاخر فى حاجة الى الاستمالة ..

فمشروع السد العالى لايمكن ان ننشر التوعية بأهميته وخطورته ما لم نقدم بيانات دقيقة بزيادة عدد السكان فى السنوات المقبلة ، وعدم كفاية الموارد الحالية لمجابهة هذه الزيادة المطردة ، كما نبين بالارقام والاحصاءات مساحات الاراضى التى ستروى ريا دائما ، وطاقة المصانع التى ستدار بالكهرباء الناتجة عن المشروع ، والايدى العاملة التى ستمتصها هذه المصانع ، وهل ستكفى هذه الكهرباء لكى تمتد الى القرى والدساكر فتملأها بالضياء او لا تكفى .. ونحو ذلك مما يدخل فى وسائل الاقناع .

ولكن المثقفين المهيمنين على العواطف كالادباء والفنانين بحاجة الى عنصر الاستمالة فى اثارة الحماس وبعث الحمية لصيانة المكاسب التى تحققها الثورة ، ولنشر الاحساس بالجمال والحق والخير فى

مجتمع تظلله العدالة الاجتماعية ، وتختفى فيه الاحقاد ، ويسود فيه الحب .

أصول الثورة الثقافيـة

مســـتوحاة من خطب واحاديث الرئيس

فى اغسطس سنة ١٩٥٨ عقد المعلمون مؤتمرا للتعبئة القومية بمدينه الاسكندرية ، وشارك الرئيس فى أحد الاجتماعات وتحدث به ، وكان من بين ما اعلنه :

« ايها المعلمون .. يارجال العلم والثقافة .. ان دوركم فى بناء الوطن كبير وخطير ، فعليكم تقع أمانة خلق جيل يؤمن باهداف الثورة ، وان اعظم عمل يمكن ان تقوموا به فى عمليـــة البناء أن تذكروا ان لنا جميعا اخوة فى الريف تراودهم الاحلام فى حيـــاة كريمة لائقة ، فذلك القروى الذى يحيا فى أقصى نقطة بالصعيـد يتطلع الى اليوم الذى يجد له مسكن من حجرتين نظيفتين مزودتين بالماء والنور ، ولا يمكن ان نضمن لهذه الاحلام ان ترى النور الا اذا شعرتم بمدى مسئوليتكم تجاه هذه الامانة ، انتم الذين اتيحت لكم حظوظ التعلم وفرص الاستقرار والعيش الكريم ، أنتم الذين تفتحت بصائركم ، ونمت مداركم مطالبون اليوم بأن تمهـــدوا لاهلكم وذوى قرباكم شيئا من هذه السعادة يعيد اليهم ثقتهم فى المستقبل ، ويصون لهم حريتهم وكرامتهم »

وفى حديث للرئيس أمام الصحفيين نبه سيادته الى نقطـة هامة « ان مجتمعنا الحقيقى ليس هنا فى القاهرة ، انه هناك فى القرية لاننا نحيا هنا حياة لاباس بها ، فنريدكم ان تتجهوا بكل طاقاتكم نحو خدمة الفلاح والاجير وعامل التراحيل ، فتبسطـــوا احوالهم ومشاكلهم ، وتحدثونا عن امالهم ، وتضعوا لنا الحـــلول التى تكفل النهوض بمستواهم »

وفى ٢٥ نوفمبر ١٩٦١ خاطب الرئيس اعضاء اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى قائلا « علينا ان نجابه ثورتين ، سياسية واجتماعية وعلينا فى نفس الوقت ان نجابه ثورة ثقافية ، والثورة الثقافيـة

ضرورية لتدعيم الكيان السياسى المنشود والكيان الاجتماعى المأمول » .

ويستطرد الرئيس قائلا « ان المثقفين مسئولون فى الدرجة الاولى عن حمل امانة الثوره بوصفهم قد نعموا بالفرصة التى حرم منها سواهم ، و يس يكفى ان ياتى الفرد الى الجامعة ليتخرج منها مدرسا او مهندسا أو طبيبا ، ثم يعود الى قريته فلا يولى اهتمامه بزملاء الصبا والطفولة الذين لم تواتهم الظروف مثله .. عليه الا يقف منهم موقفا سلبيا فاترا ، بل يجب ان يحس بعظم الامانة الملقاة عليه تجاههم .. لقد كنا فى الماضى نسمع كثيرا من ينادى بانه اذا جاء الى الحكم سيرفع مستوى الشعب ، حتى اذا وصل الى كرسى الحكم اكتفى بان يرفع مستوى نفسه ونسى الشعب ، ويصبح حديثه قبل الحكم مجرد اسطوانات وكلام انتخابات لايقدم ولا يؤخر ، ذلك لانه يعلم ان الوزارة ستبقى فى الحكم بضعة أشهر ، برى من الافضل ان يستغلها لصالحه وصالح أسرته ..

ولكن الوضع الان قد تغير ، فانا لا اعد مسئوليتنا تجاه الشعب مرتبطة بالواجب أو الوظيفة نفرغ من التفكير فيه بمجرد انصرافنا من العمل ، بل علينا أن نجعله اسلوب حياتنا ، ورائد أفكارنا ومحط آمالنا » .

ويستمر سيادته قائلا « اننى أرى من بينكم عددا كبيرا من أساتذة الجامعات من رجال الاقتصاد والقانون والعلوم وغيرهم فاناشدكم أن تقدموا لنا جديدا فى الثقافات يتلاءم مع أنظمتنا وظروفنا .

ان الوقت قد حان ليقف الطالب على حقائق اتجاهنا الاشتراكى بجوار الانظمة الاقتصادية المقارنة التى يدرسها ، حتى اذا خرج الى الحياة العملية استطاع أن يفيد بثقافته اخوانه من المواطنين ، ولهذا فما دمنا نطالب بثورة ثقافية فمن الواجب أن تنهضوا بوضع مؤلفات عن نظامنا الذى لم نقتبسه من ظروف خارجة عنا ، وانما استوحيناه من بيئتنا وتاريخنا وعقائدنا ،وكذلك الحال بالنسبةللدراسات القانونية فما زال كتاب القانون الدستورى هو نفسه الذى كان يدرس منذ عهد بعيد ، أن تجربتنا جديدة ،

وتناشدكم ان تضعوا لها من الانظمة والتفصيلات والتفريعـــات ومن مجموع كتاباتكم فى النواحى المختلفة يمكن أن تتالف نظريتنا العامة ، لان جمال عبد الناصر لن يخرج للناس بهذا الكتـــاب ، انما المهمة مهمتكم والواجب واجبـــكم » .

وفى ١٨ ديسمبر ١٩٦١ خطب الرئيس فى حفل عيد العلم السابع فوجه حديثه الى الادباء والعلماء والفنانين والاساتذه والطـــلاب قائلا « ان العلم عماد بناء الامة المادى والثقافه عماد بنائها الفكرى، ولقد انتصرت ثقافة الشعب حين انتصرت ثورة ٢٣ يوليـــو ، لان هذا الانتصار كان نهاية الصراع بين ثقافة يريد الاستعمار واعوانه فرضها على الشعب ، ولكن الشعب تمكن من المحافظة على أفكاره تجاه الظلم الاجتماعى وطموحه الى حياة كريمة تسودها العـــدالة الاجتماعية والديمقراطية الصحيحة .. ان الثقافة التى نريدها اليوم تنشد ديمقراطية سليمة تقاوم ديكتاتورية الطبقة الرجعيـــة المستبدة وتقاوم ديكتاتورية البروليتاريا ، ولهذا فان جيش الثقافة الجديدة هو الشعب كله بعماله وطلابه وفلاحيه وتجاره وابنـــاء الطبقة المتوسطة فيه »

وقال سيادته ايضا « هذا البلد لايمكن أن يكون بأى حال من الاحوال قويا الا اذا كانت الفرصة للشعب كل الشعب . لكل فرد من أبناء هذه الامة الفرصة المتكافئة الفرصة المتســـاوية. ولهذا فقد اعلنا حينما قامت الثورة أننا نريد أن نقيم بين ربـــوع هذه الامة الحياة الديمقراطية السليمة بمعناها وبمبناها الـــتى تمكن لكل فرد من ابناء هذا الشعب ان يكون حرا فى بلده سيدا فى وطنه .. فلابد لنا من ثورة ثقافية معادية للاستعمار والرجعية والاقطاع ورأس المال والاستغلال ، ثورة ثقافية هادفة الى ان يعرف الشعب حقوقه ومكاسبه وآماله ، ثورة تفتح عيـــونه على أعدائه وعلى أصدقائه ، ثورة تمكن من بناء المجتمع المتحرر الذى تسوده الكفاية والعـــدل »

***

من هذه الاقوال المتناثرة فى مناسبات مختلفة يمكن ان نحدد المعالم الاساسية للثورة الثقافية كما يتصورها الرئيس :

١ - ان الاصل النفسى للثورة الثقافية « انساني » اى انه نفس الاصل الذى ترتكز عليه كل من الثورة السياسية والثـورة الاجتماعية ، وأن غاية الثورات الثلاث هى الوصول الى درجةيكرم فيها الانسـان .

٢ - كما ان الثورة السياسية تشرك الشعب فى الحكم ، وكما ان الثورة الاجتماعية تشرك الاجير فى أرض الاقطاع ، والعـامل فى ربح المؤسسة والجمهور فى القطاع العام .. فان الثورة الثقافية تشرك من لم ينل حظا من العلم والرفاهية مع من أتيح له حظـمنهما .. ونتيجة ذلك كله ان تنفسح الحياة للفرص المتكافئة .

٣ - ليس المهم ان يملك المحروم بل ان الاهم من ذلك ان يحافظ على ما ملك ، وان تتطور نفسيته حسب التطورالاجتماعي والسياسى حتى يمكن أن يضطلع بذلك ، ومهمة الثورة الثقافيـة أن تقود هذا الوعى حتى ينضج ويكتمل ، بحيث لاتهدد هبـات المستقبل هذه المكاسب بالضياع .

٤ - الثورة الثقافية لاتقوقع العلم والادب والفن ، انما تريد ان تخرج بها جميعا الى السواد الاعظم من الشعب ، الى القرية ، حيث ما زالت الغالبية تحيا حياة غير لائقة .

٥ - الثورة الثقافية حين تنشر الوعى بين المواطنين تشـارك فى القضاء على كثير من الامراض الاجتماعية لانها ستثير الحمـاس فيمن يعطى لان يعتاد البذل والتضحية والايثار ، كما انها ستروض من ياخذ على ألا يحس الحقد والمرارة والكراهية التى كان يشعر بها فى حالة الشقاء والحـرمان .

٦ - اننا فى مرحلة التطبيق الثورى لفلسفتنا السياسـية او الاجتماعية لن نضمن للافكار ان تؤتى ثمارها الا اذا صـحبتها عند التطبيق توعية بحقائق الاهداف المنشودة ، فالقروى الاجـير الذى كان اقصى ما يناله من أجر خمسة قروش فى اليوم ، يغدو بعد الثورة مالكا لخمسة أفدنة ، فمالم نباشر توعيته الاجتماعيـة قد يطور حياته الى أسوأ ، فيتزوج واحدة بعد واحدة بعد واحدة، أو يعرف طريق المقهى ويدمن المخدرات ، أو يلتف باصـدقاء

السوء فيزينون له الفراغ والشطط ، وهكذا يؤتى الضرر من حيث يراد النفع .. بينما تستطيع الثقافة بوسائلها المتعددة كالوعظ الديني ، والبرامج الاذاعية ، والبحوث الاجتماعية ونحوها أن تسهم في الوصول بهذا القروي الى حياة سعيدة آمنة .

٧ ــ الثورة الثقافية ــ كما أوضح الرئيس ــ ليست وظيفة .. انما هي أسلوب حياة ، وهذا الاسلوب في أمس الحاجة الى القدوة الصالحة ، فاذا وصل طبيب او مهندس او رئيس لمجلس المدينة ــ وهم جميعا أصحاب دور قيادي في حدود وظائفهم ــ ينبغي الا يتوقفوا عند حدود القرية في عرباتهم الفارهة ليتحدثوا مع الوجهاء والاعيان ، والا يروا في هذه الاحاديث أقصى ما يستطيعون من جهد وخدمات نحو القرية ، بل عليهم ان يخالطوا الناس ويهبطوا الى أزقة القرية ، وأكواخها وأعشاشها ليشهدوا المشاكل على الطبيعة حتى تكون حلول هذه المشاكل ناجعة وحاسمة .

٨ ــ ان وسائل الثورة الثقافية هي وحدها القادرة على أن توفر للدولة الملايين العديدة التي تنفق في وجوه قد يكون السبب في وجودها نقص في التوجيه والارشاد والتوعية ، وقد يمكن بهذه السبل ان نتدرج في القضاء عليها والخلاص منها ، فالامراض المتوطنة في الريف كالبلهارسيا والانكلستوما والملاريا ، تساعد الامية على تهيئة ظروف نموها وتكاثرها وانتشارها .

بالتوعية يمكن ان نصل الى حلول طيبة في موضوع تحديد النسل ، مستعينين بما توصلت اليه الدول الاخرى ــ كالهند مثلا ــ من نتائج وبحوث .

بالتوعية يمكن أن نبشع من ادمان المخدرات بحيث تبدو هذه النقيصة امرا حقيرا تأباه كرامة الانسان ، وقد تكون للوسائل التثقيفية فعالية لاتتوافر في سلطان القانون .

بالتوعية نستطيع ان نقدم لربة البيت قوائم للطعام الصحي المناسب كما ونوعا ، فتختفي تدريجا ظاهرة المائدة العامرة الحافلة

بالدهون واللحوم والاطعمة الثقيلة التى لاتزيد البطن الا تخمة وعللا .

وهكذا يمكن للمثقفين فى مجالات تخصصهم ان يسهموا فى توفير الكثير من الاموال بطريق مباشر أو غير مباشر ، عندما يقتلعون من المجتمع آفاته وأمراضه ، فيضربون بذلك عصفورين بحجر واحد .

٩ ــ لقد ورثنا من العهود الماضية تركة مثقلة أخص خصائها اعتلال النفس ، ولا نتصور أن فى مقدور حاكم مهما اوتى من حنكة وقوة وسيطرة ان يشفى النفوس من عللها ، ولهذا فان الامل معقود على المثقفين فى تربية الضمير واصلاح النفوس .

والحق ان المثقفين فى هذا المجال يجب ان يبدأوا باصلاح انفسهم ، وأن يتحرروا من ربقة الانانية والغرور حتى يكونوا امثلة صادقة لمن يصلحون .

ولقد حدثنا الرئيس فى « فلسفة الثورة » كيف اصطدم بهذا الغرور وتلك الانانية فى بداية الثورة ، فى لحظة كان الوطن يتطلع فيها الى حشد كفاياته ومواهبه لاجتياز الصعاب التى تواجه مستقبله .. فقال الرئيس :

« وذهبنا نلتمس الرأى من ذوى الرأى ، والخبرة من أصحابها ومن سوء حظنا لم نعثر على شىء كثير ، كل رجل قابلناه لم يكن يهدف الا لقتل رجل اخر! وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف الا هدم فكرة أخرى ! ولو اطعنا كل ما سمعناه لقتلنا الرجال وهدمنا جميع الافكار ، ولما كان لنا بعدها ما نعمله الا أن نجلس بين الاشلاء والانقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس »

ويمضى الرئيس قائلا :

« ولو أن أحدا سالنى فى تلك الايام ماهو اعز امانيك ؟ لقلت على الفور :

ــ ان أسمع مصريا يقول كلمة انصاف فى حق مصرى اخر .

وأن أحس أن مصريا قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لاخوانه المصريين ، وان ارى مصريا لايكرس وقته لتسفيه آراء مصرى اخر .

وكانت هناك بعد ذلك انانية فردية مستحكمة ، كانت كلمة « أنا » على كل لسان ، وكانت هى الحل لكل مشكلة ، وكانت الدواء لكل داء، وكثيرا ماكنت أقابل كبراء ـ او هكذا تسميهم الصحف ـ من كل الاتجاهات والالوان ، وكنت اسال الواحد منهم فى مشكلة التمس عنده حلا لها فلم أكن اسمع الا انا .. مشاكل الاقتصاد هو وحده يفهمها ، أما الباقون جميعا فهم فى العلم بها اطفال يحبون . ومشاكل السياسة « هو » وحده الخبير بها أما الباقون جميعا فما زالوا فى « الف باء » لم يتقدموا بعدها حرفا ..
وكنت أقابل الواحد من هؤلاء ، ثم أعود الى زملائى فأقول لهم فى حسرة :

لا فائدة ، هذا رجل لو سألناه عن مشكلة صيد الاسماك فى جزر هاواى لما وجدنا عنده جوابا الا كلمة « أنا » .

وانما نشأت هذه الظاهرة بين المثقفين نتيجة المواريث الثقيلة التى تسللت الى نفوسهم من العهود البائدة حيث اغتنام الفرصة ، والوصولية ، وحب الصدارة .. وتلك أمور تذهب بعنصر هام من عناصر الثقافة « وهو الاخلاص » كما سبق أن أوضحنا من قبل .

وعلى المثقفين فى المرحلة الحالية من مراحل التطور أن يدركوا انهم ـ فى تقدير الرئيس ـ قادة الثورة النفسية ، عليهم ان يكونوا نماذج لمن سواهم فى الايثار والتضحية والنزاهة واحترام الذات ونشر المحبة بين الناس ، واحقاق الحق ، والتمسك بالفضيلة ونصرتها فيما يكتبون او يذيعون أو ينشرون .

وفى اعتقادى ان الوطن لم يكن فى حاجة الى جهود المثقفين فى وقت من الاوقات اكثر مما هو عليه الآن ، ذلك لان الشعب

حين قام بثورة ١٩٥٢ قد وضع كل آماله وحدد مستقبله غداة قيام هذه الثورة ، ولم يكن بحاجة الى اقناع للقيام بالثـــورة أو تحديد المستقبل ، انما فعل هذا وذاك بوحى من ضميره ، وتدرج مراحل كفاحه عبر السنين ، فنفجر كما يتفجر الينبوع .. ولكنه فى مرحلة البناء والتطوير فى أشد الحاجة الى الاقناع والمتـابعة والرعاية والدفع ..

وتلك هى امانة المثقفين ..

- ٣ -

قضايا عامة فى أعناق المثقفين

على عاتق أهل الثقافة يقع عبء نقـــل الثورة من حيزها الضيق الى نطاقها الواسع بحيث يصبح مجموع الشعب صاحب الثورة وحارسها والساهر على تطبيقها فى أدق دقائق حيـــاته ؛ فالمثقفون هم الذين يمنحون الثورة طابعها الديناميكى النشـــيط حتى لا تتوقف أو تتعثر أو تجمد ، وحتى يصبح الشـــعب بأسره ـ على حد تعبير الرئيس ـ جيش الثقافة بكل طوائفه وأبنائه .

ولست أدعى أننى سأحصر كل القضايا العامة التى يفترض أن تكون على كل مثقف تبعة حملها بغض النظر عن مجال تخصصه؛ انما أود لو أضرب أمثلة ببعض الامور التى تشغل البال قبـــل غيرها .. أما الفصل الاخير من الكتاب فسيعرض لنمـــاذج من القضايا الخاصة التى تتعلق بمجال التخصص ، وقد رأعينا ان نقسم الحديث تقسيما يتصل بحياة الشعب ، من جوانبها المختلفة وبهذا نفهم الثقافة لا على أساس أكاديمى بحت بل على أســاس صلتها بما يمكن أن تؤديه من خدمات للمجتمع .

***

ان ابرز ظاهرة تلفت النظر فى ثورتنا انها لا تنحصر فى كتاب تجمع متونه أصول الثورة ، ثم كتب تشرح هذه المتون ، والا لكانت مهمة المثقفين محدودة بالشروح والتأويلات والاجتهادات فى التفسير حسب مقتضيات الحال .

وقد يظن البعض من هواة النظريات وكتب والجدليات أن فى ذلك نقصا يلحق ثورتنا قياسا على ما الفوه فى المجتمعـــات الاخرى من كتب تكاد تطغى فى اهميتها على الكتب المقدســة المنزلة من لدن حكيم عليم !

ان العكس ــ فى تقديرى ــ هو الصحيح ، فان عدم انحصار ثورتنا بين دفتى كتاب ، قد منح الثورة طابع المرونة والحيوية ؛ لانه وصلها بواقع الحياة وتطور الظروف ، قد اكتفت الطليعة التى رادت ثورة الشعب فى يوليو سنة ١٩٥٢ أن تعلن مبادئها الستة ، وأن تجعل هذه المبادىء نقاط وثوب وانطلاق ، وما دام الشعب قد تحرر من الدخيل والمستعمر والمغرض ، فان التحرك سيكون بارادة الشعب وعلى سجيته وبوحى من ضميره وعقائده وفى هدى آلامه وآماله ؛ ومن واقع ماضيه وحاضره ، فكل سطر يخطه فى المستقبل رهن بالجو الطبيعى الذى يتنفس فيه بارادته واختياره وطبعه .. وأعتقد أن ذلك أمر منطقى ، لان الثورة ليست بحيرة ساكنة آسنة ، والا لاصابها التخثر ، وانما الثورة سيل جارف عنيد ، ينحدر من قمم الجبال وذراريها نحو السفح، وهو يتثنى فى مسيره حسبما تتصدى له الاحجار والصخور ، ولكنه لا يتوقف أبدا ، ولا يتمهل أبدا ..

ثم .. أرأيت الى دعوة الاسلام كيف يعده أجلة المفكرين ــ حتى من بين خصومه ــ أكثر الرسالات واقعية وتدرجا ، ذلك لانه تكون عبر تاريخ طويل من الجهاد والكفاح ، وتتبع نفسية المؤمنين وهم قلة مهاجرة حتى صاروا كثرة مستقرة آمنة ؛ كما حسب الاسلام للجسد حسابا حين حدد للروح احتياجاتها ، فلم يتملق غرائز الجسد حتى يسف بها وبه ؛ ولم يوجه الروح الى حياة الانعزال والتعبد والعكوف التى تحيل الانسان الى راهب هارب من الحياة والاحياء ، انما أعطى الاسلام كل من الجسد والروح نصيبا ، وهو فى هذا الاعطاء لم يحدده تحديدا جامعا مانعا صارما ، بل راعى اعتبارات الالف ، وقدر بشرية الانسان ، وتدرج نفسيته فى الاباحة والتحريم ، حتى وصل الى اكتماله ونضجه فأرسى قواعده ، وابان أوامره ونواهيه .. كل ذلك فى تسلسل تربوى تدريجى عجيب ، بل كان فى مسيره يغير وينسخ فى بعض الاحيان حسبما تقتضي الاحوال وتفرض ظروف البيئة .. وبهذه التربية المتدرجة المرنة الواقعية جعل من المسلمين فى مدة وجيزة هداة الدنيا وقادة الانسانية .

وعلى هذا فالكتاب الذى يلقى على الملا من صاحب الدعوة ليس شرطا اساسيا فى نجاح هذه الدعوة بل اكاد اقول ان ذلك

قد يكون سببا قويا فى اخفاقها حين تصطدم تعاليم الكتـــــاب بالاحتياجات الواقعية للانســـان . .

والذى يمكن ان نقوله عن ثورتنا انها تتميز بطابع عام نوهنا به من قبل انها تطمح الى كل مامن شانه تكريم الانسان ، فـاذا راعى الاحاد وا جماعات فى سلوكهم هذا المبدأ افســحوا لتعاليم الثورة السياسية والاجتماعية ، أن تنبعث من ذواتهم هم ، وأن تكون هذه التعاليم نابعة من اعمق اعماق نفوسهم ، لانها لن تكون سوى نشر المحبة ، وتحقيق الخير ، وكفالة العــدل .

ولكي نوضح الرأى فى ضعف النظرية المكتوبة نسوق مثـال الشيوعية : ان للثورة الروسية كتابا يعتبر فى درجة التقــديس، وكان ستالين احد المشاركين فى وضع تعاليم هذا الكتاب ، وابرز شراحه على الاطلاق ، فماذا حدث بعد وفاته ؟ لقد ثبت ان الاتجاه الستالينى ـ او هكذا رأى خلفاؤه ـ اتجاه مسرف فى التعصـب والتسلط ، فلم يعادوه عداوة مذهبية صامتة بل ناصبوه الكراهية بصورة قاسية فازاحوا رفاته من موضعه ، وحجبوه فى ركن جانبى من سور الكرملين ، بل يقال انهم القوا به الى قاع نهر الفوبى ،ولم يكتفوا بذلك بل انزلوا رتبة ابنه الضابط فى الجيش السوفيتى ،

وشوهوا تاريخ الرجل ، وحاكموه محاكمة عسيرة تجلت فى مطاردة اصدقائه وانصاره وتشريدهم وتسفيه آرائهم ، وأزالوا اســمه وصورته من كل مكان . ولقد خلف ذلك صراعا مذهبيا فى داخـل الكتلة الشيوعية يخفي احيانا ويستعلن احيانا .. ولست ادافـع عن الرجل ، بل اسوق مثالا على ان عبادة « الكتاب » ادت بوعى وبلا وعى الى عبادة الفرد ، فكانت نتيجة ذلك ان صار الفـــرد موضع نقد صامت دفين طوال حياته ، اســتحال الى سخرية وكراهية وعداوة بعد مماته ، والسر فى ذلك ان الفكرة لم ترتبـط بمراحل تطور الشعب بمقدار ما كانت مرتبطة بخرافة تقــديس الكتــاب واصحاب الكتــاب !

***

كيف نخاطب المحرومين والجياع والمرضى والاميين بحــديث عن المعنويات والمثاليات ؟ ان منطق الامور يفرض علينا ان نخوض

الجانب المادى فى المعركة قبل جانبها المعنوى .. فاذا شبعت البطون وصحت الابدان واستنارت العقول ، وأمكن ان يحظى الفردبالاستقرار المعاشيوالنفسى ، حدثناه حدث الحريةالسياسية والديمقراطية السليمة ، لقد كان اعظم خطأ وقعت فيه عهود ما قبل الثورة انها شغلت الناس بالدور المعنوى دون اهتمامبالانعاش المادى .. فكانت نتيجة ذلك ان أصبحت كل المفاهيم الفاظا جوفاء مجردة لاتغنى ولا تشبع ، كانت الامور تجرى على نحو مقلوب ، فبينما يتشدق الحكام بالحرية والمساواة والبرلمان ، كانالشعب يعانى مرارة الفاقة والعوز ، وكانوا هم ينعمون بالخيراتويتمرغون فى الترف .

حقيقة الموقف الان أن يخوض المثقفون المعركة على أساس سليم ، وأن يبصروا الناس بأن لكل مرحلة تقدمية تبعاتها وأفكارها ووجهتها .

* * *

فصلت العهود الماضية بين القرية والمدينة ، وحكمت علىالقرية بالتخلف وأدى هذا الانفصال الى ظهور نوع من الشعور الطبقى ، ليس فقط بين ساكن الريف وساكن الحضر ، بل ان ابن الفلاح الذى ياتى الى المدينة يتلقى العلم فى المعاهد والجامعات ثم يلتحق بالوظيفة الحكومية يشعر بانتماء الى المدينة وأهلها ويرتبط بمصالحها ، ويدين بتقاليدها اكثر مما يشعر نحو اهله ووالديه وقربته ، وبالتالى ينسلخ فكريا عنهم ، ويوشك ان ينتقل الى وطن جديد ..

ونحن لو امعنا النظر فى مجتمعنا أمكننا ان نقسمه الى فئة للانتاج وفئة للخدمات ، وتكاد فئة الانتاج تكون غالبية الشعب ، وتكاد كذلك ان تتركز فى القرى .. فالقرية تقوم بعبء الزراعة .. والزراعة عندنا مازالت عماد الصناعة .. ومن هنا فان المجتمع الحقيقى لبلادنا مازال قرويا .. والقرية هى التى تعرضت للظلم والطغيان فى احلك عصورهما .

دنشواى مازالت فى تاريخ بريطانيا وصمة عار .

كفور نجم وكفر البدراوى وميت شهالة وابو كبير ضربت فى مقاومة الاقطاع اروع الامثال .

القرية هي الرافد الفني الذي يغــذي الجيش بالابنــاء المحـــاربين .
القرية هي التي حافظت على الطباع الاصيلة للشعب رغــم تعدد الغزاة والمستعمرين

القرية هي التي انبتت المصلحين ودعاة التطـور .
والفلاح بذكائه ودهائه وصبره وصمته كان القوة الصامدةفي تاريخ المقاومة الشعبية . وكانت وسائل التهريج من حول الملك تصعد به الى درجة خيالية ، فتجعل منه العامل الاول والفلاح الاول والصالح الاول .. ولكن ذلك كان يقابل من جانب الفلاحين وهم يسمرون فوق مصاطبهم بالسخرية اللاذعة والفـــكاهة المريرة .

لقد آن الاوان لان نغير نظرتنا لكيان مجتمعنا ، وليس يكفي أن يكتب الكتاب عن بؤس الفلاح ، وفقره ، ومرضه ، انما نـريد حملة أصلاحية منظمة مدروسة من اجل اسعاده وتوعيته ،وهذا ما جعل الرئيس يربط دائما وأبدا بين الثورة الثقافية وبين انعاش القرية ، وفي اعتقادي ان الوسيلة الايجابية لذلك تتركز في ناحيتين:

مهمة النقابات ان تصدر مجموعة من التشريعات تنص على أن الاطباء والمهندسين والمدرسين والزراعيين والاجتماعيين ونحـوهم من أبناء القرية ملزمون بواجب أدبي نحو قراهم التي نبتـــوا فيها ، ونزحوا عنها ، وان عليهم ان يؤموا قراهم في موعد محـدد لايتعارض معأعمالهم الاصلية، ليقوموا نحوها بواجبات محددة،تقدم عنها تقارير لمجلس القرية ، تشمل سير المشروعات ، وتشـمل كذلك المقترحات والمشاكل والتمويل ويراعى بقدر الامكان ان نتجنب الاتكال على الدولة في كل شيء ، اللهم الا في الامور المرتبطة بالخدمة العامة ، ذلك لان الاتكال على الدولة في كل صغيرة وكبيرة آفـــة الاصلاح في بلادنا ، ففي معظم البلاد الراقية تشرف الجمعيـــات التي يؤلفها الاهالي على معظم مرافق الخدمات في القـــرى ،وبهذا السبيل نكون قادرين على تفهم احتياجات القـــرية الحقيقية، عاملين على تلبيتها بأنفسنا ، ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، لاننا

نكون عندئذ متحررين تماما من ربقة الروتين والتسويف وحجة توزيع الخدمات .

ان النقابات و اشرفت على هذه الحملة تكون قد خرجت من نطاقها الضيق المقصور على خدمة مصالح الافراد المنتمين اليها وحققت للوطن أجزل النفع ، وجعلت المهنة فى خدمة الجماعة.. وصارت اصلح نويات المجتمع الاشتراكى المنشود .

ولقد استطاع قائدنا أن ينقل للضمير العالمى صورة حقيقية عن حال الفلاح وصبره ، وشغفه بتغيير الوضع الاليم الذى عاش فيه سنين طوالا ، فقال مخاطبا أعضاء الجمعية العامة للامم المتحدة سنة ١٩٦٠ :

« ان الشعوب الحديثة الاستقلال تؤمن أن حريتها الحقيقية هى فى ايجاد مستوى من المعيشة لائق بأبنائها ، ثم ان الشعوب حديثة الاستقلال — ومن واجبى ان أقول هنا بصراحة — تتعجل الطريق الى النمو الاقتصادى وتشعر انها لم تعد تملك الوقت لتضيعه بعد التخلف الطويل قياسا على غيرها .

ولقد يكون هناك من يرى أن العجلة طريق الخطأ ، ولكننا اذا سلمنا بذلك نكون قد ارتكبنا خطأ أكبر هو نسيان أن طبيعة الظروف التى نعيش فى ظلالها الآن تجعل من الانتظار الطويل أمرا لاتحتمله الشعوب ، ولعل التقدم العلمى أول هذه الظروف التى نعيش فى ظلالها .. ذلك أن أى فلاح فى أقصى الجنوب فى وطننا يملك بلمسة اصبع ان يدير اجهزة الراديو او يجرى بعينيه على سطور جريدة ، فاذا هو يسمع ويرى عن مستوى المعيشة الكريم الذى وصل اليه المواطن الامريكى العادى ، او يسمع ويرى الاعمال الباهرة التى تقوم بها شعوب الاتحاد السوفيتى ، ثم ان هذا المواطن يقارن بين حاله وبين ماوصل غيره اليه ، ثم اذا الثورة تملك نفسه من غير حقد على غيره نزوعا الى رفع مستوى معيشته ومساواة بينه وبين غيره من البشر الاحرار .. ولقد يقال لشعوبنا ان الصبر ضرورة ، وان شعوبنا تحملته ، وانما دعونى هنا اذكر بأن طاقة اى جيل على الصبر تقاس بظروف هذا الجيل لابظروف غيره من الاجيال ، والذين كانوا يقدرون على الصبر مثلا حتى قطعوا المحيط فى قارب يدفعه الريح يختلف تماما عن الذين يقدرون على قطع المحيط فى بضع ساعات بطائرة نفاثة ، ان شعوبنا

لتشعر انها قد فاتها عصر البخار وفاتها عصر الكهرباء ، ويوشك ان يفوتها عصر الذرة بامكانياته الرائعة ، ومن هنا نرى تصميم الشعوب على تحقيق حريتها الاقتصادية ، ومن هنا نرى اندفاعه العنيف فى ميادين التطوير الصناعى والزراعى وميادين المساواة الاجتماعية » .

ولست فى حاجة لان اعلق على هذا الحديث الرائع أكثر من ان انبهك أيها القارىء الى الجانب الانسانى منه ، لتدرك معى أن جوهر ثورتنا الاصيل هو الوصول بالانسان الى مستوى لائق كريم .

***

وعلى الذين نهلوا من الثقافات الاجنبية المختلفة ، الادبية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والقانونية والتربوية أن يضعوا فى اعتبارهم وهم ينقلون او يعكسون اثار هذه الثقافات على مجتمعنا أن يلحظوا الفروق البيئية بيننا وبين غيرنا فضلا عن الفروق الذوقية والفطرية ، والا تصدمهم هذه الفروق عند محاولة التطبيق .

ولقد عانينا كثيرا جدا من عدم جدوى التطبيق الحرفى لهذه الثقافات . وسأحاول هنا أن اتناول جانبا واحدا من حياة الشعب هو الناحية الاجتماعية لاثبت ما يلزم ادراكه عند ادخال بعض الخدمات الاجتماعية الى بلدنا مجلوبة من بلاد أخرى .

فالصورة المعرفة لهذه الخدمات فى المجتمع الغربى لا يمكن أن تفيد لدينا فان مجتمعنا له سماته الخاصة ، فهو ذو أساس زراعى ، وما زالت حركة التصنيع — رغم الجهود المبذولة — فى بداية الطريق بالنسبة للبلاد العربية التى ضربت بسهم وافر فى هذا الميدان ، كما ان مجتمعنا ما زالت تغلب عليه الريفية ، واو ان سرعة التحضر بدات فى الازدياد فى السنوات الاخيرة على عكس المجتمعات الغربية التى يعيش معظمها فى مدن كبيرة ، كذلك فان نسبة التعليم فى مجتمعنا ما زالت ضئيلة نسبيا ، كما ان امكانيات مجتمعنا المادية قليلة فان الفقر ما زال يضرب بأطنابه على نسبة غير قليلة من السكان ، ومتوسط دخل الفرد لا يكاد يفى باحتياجاته

الضرورية وما زلنا نعاني كأفراد من ظاهرة الانتماء الاجتماعي بمعنى ان المولود في بيئة فقيرة ينتمي الى هذه البيئة ما لم يشق طريقه في الحياة بذكائه وجهده دون اتكال على المجتمع ، ومن يولد من ابوين ثريين ، يزداد على الايام غنى حتى ولو لم يبذل جهدا او ذكاء، وحتى لو خلا من المواهب بالكلية ، وحتى لو لم يقدم للمجتمع خدمة ما .. فهذا الشعور بالانتماء يجعل من الخطأ النظرة الى الجماعة كجماعة تطبق عليها أوضاع متشابهة متماثلة بل يجب ان تراعى الفروق الفردية لضمان جدية التطبيق .

مسالة اخيرة فيما يختص بالبحوث الاجتماعية ، انمعلوماتنا ــ برغم الجهود الاحصائية الكبيرة ــ غامضة بعكس المجتمعات الغربية التى بحثت ودرست وفق احصائيات دقيقة ، ودراسات علمية سليمة .

ولقد زاد من مشكلة البحث عندنا أن معظم مشاكلنا فيالريف .. والريف عندنا غالب النسبة ، ولهذا فحجم المشكلة الاجتماعية يكبر عندنا عما فى الخارج ، ولقد وقعنا فى خطأ كبير حين نظرنا الى المدينة نظرة متفوقة متاثرين بالفكرة الغربية عن المدينة باعتبارها مركز التطور السريع والعلم والتلاقى الثقافى ومركز تصدير المعرفة الى القرية ، ولكن هذه النظرة ان صحت فيالخارج على أساس ان المجتمع « مدنى » فهى لاتصح عندنا على اساسان مجتمعنا « ريفى » .

وما يصدق على التطبيق الثقافى فى مجال البحث والخدمة الاجتماعيين يصدق على كل النظريات الاخرى فى مجالات الثقافة جميعها ، وذلك لاننا فى بلادنا نؤلف بيئة اجتماعية خاصة لها ظروف وتاريخ واتجاهات تتميز بها عما سواها .

***

يلجأ الاستعمار وأعوانه فى كثيرا من الاحيان الى بث الدعاوى

الباطلة التى تشكك فى كفاحنا ، وقد تجد هذه الدعاوى عند بعض النفوس صدى واقتناعا .

وليس من مهام الدولة أن تنفق الوقت والجهد لتفنيد هذه المزاعم ، ولهذا كان حتما أن يتولى المثقفون أنفسهم ، وبدافع من ضميرهم ، أن يتلقفوا هذه المزاعم ، وأن يسلطوا عليها نور الحقيقة ، وأن ينشروا على الملأ بكل امكانياتهم زيف باطلها ، بمقدار مايحتملون ويستطيعون .

وأنا هنا أحاول فقط أن أسوق القضية وأكتفى بمثل واحد موضح ... فأقول ان من بين الترهات المضللة التى تسمم الجو العربى ما ينشره الاستعماريون والمغرضون الذين أكل الحقد قلوبهم حين رأوا الجمهورية العربية تتبوأ دورها الطليعى لتحرير العرب ، ورفع راية القومية العربية — يقول هؤلاء الاعداء انه ليس من حقنا تزعم الزحف العربى لاننا فراعنة ! ! .

وهذه نعرة شعوبية قديمة يمارسها حتى الذين يدركون حقيقة أمرها ، وأنها لا تخضع لحظة واحدة للبحث العلمى الدقيق .

ماذا بقى لنا او انحدر او تطور عن هؤلاء الفراعنة ؟.

لا اللغة لغتهم ، ولا ديننا دينهم ، ولا عاداتنا أو تقاليدنا أو ثقافاتنا مستوحاة من بيئتهم ، لا الشعر ولا النثر ولا التراث الفكرى عندنا الآن تصبغه صبغة الفراعنة .

ان استقراء التاريخ والواقع يدحض هذه الفرية ويكشف باطلها ، لان ملامح شخصيتنا المميزة الان بعيدة كل البعد عن ملامح الشخصية الفرعونية ، قريبة كل القرب ، بل أصيلة كل الاصالة من ملامح الشخصية العربية ، التى كنا ذات يوم احد الروافد القوية فى تغذيتها وانمائها وانعقاد النصر لها .

وفى تاريخنا الادبى مثل لاثارة النعرة الشعوبية يعرفه دارسو الادب ، يعرفون كيف غلب الحقد على الفرس حين سيطرت الثقافة واللغة العربيتان على عراقة اللغة والثقافة الفارسيتين فهزمتهما هزيمة رائعة ، رائعة لانها تعتمد على الفكر والنضوج ولا تعتمد على

قوة السيف ، ويعرف الدارسون للادب والتاريخ كيف كان الفرس يستخدمون دسائسهم فى القصور الحاكمة حين ينتابها الضعف والخور لينقضوا على أمة العرب ، وينتقموا لما أصابهم .

واذا كان العرب قد افلحوا فى الحفاظ على قرآنهم ولغتهم وثقافتهم ووشائجهم ضد هذه الغزوات البطيئة العنيفة عبر التاريخ، فانهم اليوم أصلب عودا وأكثر نفهما للحقائق ...

ذلك أننا لو تخيلنا تطبيق هذه النظرية الباطلة على شعبنا فى مصر ، فاننا فى نهاية الامر لن نجد شعبا عربيا فى المنطقة كلها ، فاننا ــ جريا على هذه النظرية ــ سنقول انهم آشوريون وبابليون وفينيقيون وأكراد وتركمان وبربر ... الخ . هذه العصبيات الاولى التى اما انقرضت نهائيا أو تأقلمت بالتيار العربى الجارف الذى حمل اللغة والادب والتقاليد كأعظم ما يحمل المبشرون الى عقل الانسان وعواطف الانسان ، واذا كان هذا التيار قد فرض سلطانه على العقائد ، فذوب التفرقة الدينية والتزمت العقيدى ، حين وقف الشعب العربى بجميع طوائفه ليحارب الغزوات التى وفدت من اوربا ابان الحروب الصليبية ، والتى وفوت من آسيا ابان الغزو التترى ، والتى هددت الكيان العربى قبل ذلك وبعده ، وسقط الشهداء نصارى ومسلمين فى أرض المعركة ممتزجة دماؤهم مرتفعة صرخاتهم ملتقية مهجهم عند فكرة واحدة ... اذا كان للتيار العربى هذا المد ، فلن تفلح النعرة الجنسية فى اضعافه مهما تفنن المنخرصون ! .

واذا كان علينا ان نفتش فى أعماق نفوسنا وفى أعماق تاريخنا عن مصادر نستلهم منها ما يقوينا وما يوحدنا ، أفنترك ما يقوينا ويوحدنا الى ما يفتتنا ويضعفنا ، جريا وراء نظرية فى « الجنس والدم » كانت سبب نكبة النازية ، وافتضاح الهتلرية ، وهزيمة العدة والعتاد والجيوش الجرارة التى تكالبت على انتصار التفوق المبنى على الاصل « الجنسى » .

ثم ... اذا كانت سويسرا ويوغوسلافيا وامثالهما ممن كانوا

اضعف شأنا من القوى الباغية الهتلرية قد خرجتا من الحرب العالمية الثانية وقد تماسكتا وحافظتا على الوحدة القومية رغم اختلاف اللغة بين سكانهما افيكفى هذا لان نعرف مدى أهمية الوحدة القومية فى المحافظة على الكيان ضد كل الاخطار وفى احلك الساعات .

ثم الا ترون الهند تؤلف كيانا واحدا رغم ما به من ١٤ لغة .

ثم الا ترون سكان فرنسا او سكان ايطاليا ، وقد اختلفوا فى القامة واللون واللهجة والعادات فى الشمال عما فى الجنوب حتى ليبدوان من ارومة مختلفة ولم يمنع ذلك من قيام الوحدة الوطنية ...

ثم تعالوا نقلب صحائف التاريخ لنرى كيف حسم القرن السابع الميلادى الامر الذى نتحدث فيه الان بصورة قاطعة ، لقد تم للعرب اثر انسياحهم فى أصقاع المنطقة ، وانتشارهم فيها على أساس ثقافى ، أن اكتسحت شخصية هذه الثقافة كل الثقافات المحلية بل أوشكت هذه الثقافة أن تزيل من الوجود أعرق ثقافتين فى ذلك الحين وهما ثقافتا الفرس والروم .

ثم هناك نقطة هامة .. ان هذه الثقافة التى ترعرعت فى الوطن العربى لم تكن ملكا للجزيرة العربية ، وانما المحصلة النهائية للثقافة العربية نتجت عن التقاء الافكار التى أعلنها الاسلام متفاعلة مع الافكار المحلية فى كل أرض دخلها ، وهذا الامتزاج الفكرى عمل مشترك ، وهذا الاشتراك هو الذى جعل من كل شعب فى المنطقة يعرف قدره فى التكوين العام للشخصية العربية ، وفرض على كل شعب الطابع المشترك ، وفرض عليه فى نفس الوقت حراسته ورعايته من كل خطر محدق ، واختفت الى الابد نعرة الاقليمية ففى الفلسفة شارك الفارابى فى المشرق كما اسهم ابن رشد فى المغرب ، ووضع الجغرافية ابو زيد البلخى من بلخ فى المشرق وابن بطوطة من طنجة فى المغرب ، ولا فرق بين الحريرى البصرى وابن زيدون القرطبى من حيث أثرهما فى بناء صرح الادب العربى

الرفيع ، وعلم التاريخ أسهم فيه ابن جرير الطبرى من طبرستان بالشرق كما أسهم ابن خلدون الاندلسى الاشبيلى بل اليمنى فان أجداده كانوا من اليمن ، وعلم الطب شارك فيه ابن سينا من المشرق وابن رضوان من الجيزة وابن زهر من اشبيلية وفى الرياضــة شــارك الخوارزمى فى المشرق وابن الهيثم من أهــل مصر ... وهكذا كانت الثقافة العربية لبنات من هنا ومن هناك بلا تحيز ولا تجنس ولا تعصب ، ولعل هذا هو ما أكسبها الطابع الانسانى ، ولعل هذا أخيرا هو ما جعلها أستاذة لغيرها من الثقافات ، وهيأ لها النصر والفتح والغلبة ... فهل نسمح لفئة ضالة اليوم أن تفتت عنصرا من عناصر قوتنا ، شهد به خصومنا قبل أصدقائنا ؟.

لقد منحتنا هذه الثقافة وظيفة انسانية عالمية ، اذ فرضت علينا أن نلعب فى المحيط الانسانى دائما دور الوسيط .. وساعدنا الموقع المتوسط بين المناخات والنباتات وخطوط العُرض الوسطى والقارات ، كما ساعدتنا طبيعة التكوين الجغرافى لبلادنا من حيث اليابس والماء .. كل ذلك هيأ لثقافتنا أولا أن تتفاعل فىداخل ذاتها لتنضج ، وثانيا ان يتقبلها الذهن البشرى لتفتحه وتثمر .. ويقول التاريخ أننا أدينا رسالتنا فى التبادل الحضارى على خير وجه ،وما كان لنا أن نصنع ذلك الا بذوبان عناصرنا الداخلية فى المزيجالعربى، والواقع ــ ان بداية تاريخنا الحقيقى تتجلى منـــذ اللحظة التى ائتلفت فيه عناصر المزيج ائتلافا تاما .

واذا فلا معنى لمناقشة مسائل سبقت هذا الامتزاج .

ثم .. تعالوا نناقش ما سبق هذا الامتزاج ، حتى لا تظنوا أننا نهرب من وصمة تدمغ تاريخنا .. كنا فراعنة ! وماذا فى ذلك .. هل قال أحد ان الفراعنة كانوا لصوصا أو همجا أو مصاصى دماء او دعاة تخريب ؟

هل قرأتم شيئا عما كتبه الاجانب عن فن الفراعنة وهندستهم وطبهم وعقائدهم وحكمتهم وفهمهم للحياة ومثلهم العليا ؟

لقد كانوا فى كل ذلك الرسل الاوائل للانسانية ، وكانت لهم

على ضفاف النهر الخالد مفاخر تزهو بها الانسانية فى فترة كانت فيه أوروبا تدب مع الحيوان .

ثم ماذا تريدون منا ؟

أترضون ان هدمنا آثار هذه المدنية وحطمناها والقينا بها الى اليم ؟

أما تسمعون عن الدعوة النبيلة التى يتبناها الآن ذوو الفكر الراقى والفهم الانسانى فى العالم بأسره لانقاذ آثار النوبة من الغرق حين يتم السد العالى .. أليس ذلك شعورا بالهاتف الانسانى نحو مرحلة مجيدة فى تاريخ الانسان ؟ .

وأخيرا .. أكاد أقول لكم ــ وأنا أعى ما أقول .. انكم قد فضحتم أنفسكم بهذه الدعاوى الباطلة ، لانكم حين تخيرتم للهجوم نقطة وثوب ، وقفتم فى أضعف أرض ، فردت التهمة الى نحركم، ذلكم لإنكم تعلمون جيدا أن السبب فى قيام عدونا اسرائيل انما كان سببا قوميا ، وأن دعوته بالقومية ــ رغم بطلانها ــ كانت سببا فى قوته وفى استيلائه على أعز قطعة من بدننا العربى الغالى ، لقد بثت الصهيونية دعوى القومية حتى تمكنت من نسج خيطها السرطانى ، فهل تستكثرون علينا ان نحيى دعوة قومية حقةنحارب بها عدونا بمثل سلاحه ــ وهو على الباطل ؟

ثم ماذا يزعجكم فى أن تقود الجمهورية العربية هذا الزحف ، وهى التى لم تضن ذات يوم بالمال والجهد والخبرة والوقت والنفس على أى قضية عربية ، رغم حاجتها ، وحاجة أهلها الى القوت ؟ ..

ليس هذا منا ــ علم الله ... ولكن القلب يدمى حين تجد الاضاليل الاستعمارية استجابة عند من يسمون أنفسهم عربا ،وهم لم يقدموا للعرب الا المؤامرات والدس ومحاولات الاغتيال

والافقار .. والخطب العصماء ، والقصائد المعلقات ، والشعارات الجوفاء .

لقد واجهنا فى السنين الاخيرة ـ نحن الشعب العربى فى مصر ـ حملة منظمة سرية وعلنية لتوهين داعى العروبة ، ولكن شعبنا رغم ذلك كان يهتف دائما «العروبة .. أولا» وليس ذلك خيالا ، انما نحن نفهم العروبة على أنها مصير ومستقبل ، وهذا الشعور بالانتماء الى العروبة ينبع من معان مقدسة تبلورت فى نفوسنا عبر الزمن ، ونملى علينا أن كل معركة فى سبيل نصر العروبة معركة فى سبيل الكرامة .. ثم من الناحية العلمية : اذا كان فيخته الالمانى يرى وحدة اللغة أساس القومية وكان رينان الفرنسى يراها المعيشة المشتركة ، والماديون يرونها المصلحة الاقتصادية الواحدة .

فهل هو خيال أو شعر أن نقول ان عروبتنا هى ذلك كله ... وأسمى من ذلك كله ..

ستبقى القاهرة .. الى الابد .. قلب الامة العربية المجيدة ولو كره الكافرون !!

***

نريد أن يسائل المثقفون العرب أنفسهم أينما كانوا فى قوة وصراحة اذا ما خلوا الى أنفسهم فى ساعة من ليل أو نهار .. أحقا تستطيع العرب الآن أن يخوضوا معركة المصير العربى ، والبيت العربى الآن كما نعرف ممزق الاوصال .

هل يرضى هؤلاء المثقفون عن الاوضاع القائمة الآن فى بعض البلاد العربية حيث الثروات الضخمة لا ترصد من أجل صالح الشعب ورفاهيته وتقدمه ، بل تنفق ذات اليمين وذات الشمال على راقصات النوادى الليلية فى بلاد اوروبا ، ويستجلب بها الرقيق الابيض من جميع أنحاء العالم ، وتشحذ بها مواكب الخدم والحشم فى كل نقلة وسفرة ورحلة ، وتقام بها الليالى الملاح ذات الندمان والقيان فى وقت نريد بكل طاقاتنا أن نثبت للعالم قدرتنا على أننا

أمة قادرة على اقامة السدود والافران الذرية والمصانع الحديثة وبحوث الصواريخ .

ان الناس خارج بلادنا يجدون فى هذه المظاهر وتلك الابهة فرصة للنيل منا ، واتهامنا بالتخلف ، والعودة الى عصر الحريم .

والذى يثير الاشمئزاز حقا أن تلك التصرفات تنعكس على فهم الناس لتاريخنا وديننا ، لان أحكم عليهما لا يفصل بين ذواتنا وبين جواهر عقائدنا ، بل يشاء ــ لحاجة فى نفسه ــ أن يخلط الامر حتى ينبهم على المخدوعين ، فلا يقولون تأخر المسلمين بل يقولون تأخر الاسلام ، ثم لا يذكرون الآن من تاريخ المسلمين الا الخلفاء الذين عرفوا بالاستهتار والمجانة .. لاننا نثير فى واعيتهم ذلك مع علمهم بمواضع القوة الكامنة فى عقائدنا وتراثنا .

لقد كنت أشعر بخجل .. أى خجل حين حدثنى شاب أمريكى عن الاسلوب الذى استقبل به احد ملوك العرب حين سافر الى أمريكا منذ أعوام ورفض عمدة نيويورك أن يشارك فى استقباله استقبالا رسميا ، ذلك لانه فى زعمه يمثل عصور الرقيق والاماء، كما أنه ملك مزواج متلاف .

هل هذه هى العروبة وذلك هو الاسلام ؟

هل تتوقعون معشر المثقفين فى كل مكان من الوطن العربى أن نخوض معركة واحدة نحسم فيها مصيرنا تجاه عدو يعرف فينا نقاط الضعف هذه ؟

اننا لن نجتمع على كلمة سواء ونحن لا نستطيع أن نواجه انفسنا ونخلص النصح لمن يتصدرون صفوف القيادة فينا ؛ وسيمضى وقت طويل تظل فيه شعوبنا ترزح فى غيابات الجهل وشقوة الحرمان ووهن المرض ، رغم وفرة امكانياتنا المادية ، وثروتنا البترولية والمعدنية ، وقدرتنا البشرية ، ثم دعونى أقولها فى صراحة وجراة .. ان هذه القصور ستظل اوكارا للخيانة والدس

تعشش فيها وطاويط التآمر ، وترقص بين جدرانها أشباح الغدر والانتقام .. ممن ؟ من كل دعوة جريئة تهتف بالاصلاح ، ومن كل هتاف جاد ينادي بالعدالة .

واجبكم أيها المثقفون أن توقظوا الوعى العربى ، وأن تؤذنوا بالفجر الجديد .. لانه اذا ما لاح النور عميت الخفافيش !!

***

المثقفون قد لمسوا أكثر مما لمس سواهم كيف استطاعت ثقتنا بأنفسنا أن تلهمنا الاعتماد على خبراتنا فى أوقات عصيبة تطبق فيها المحن ، حين كان يخيل للاجنبى أن حياتنا ستنقلب رأسا على عقب لحظة يتخلى عنا ، لانه لم يكن يتيح للظروف أن تنمى خبرتنا أو تصقل مهارتنا أو تحسن توجيهنا ، وكانت حرب الخبرة واحدة من الحروب المختلفة التى شنها علينا الاستعمار والدخلاء .. ولقد حدث فى سنة ١٩٥٦ حين أممنا قناة السويس أن أجمعت الدول الاستعمارية بعد عشرة أيام من اعلان التأميم على سحب خبرائها ومرشديها وفنييها الذين كانوا يعملون فى خدمة هذا المرفق ، وكانوا يظنون ان هذا العمل يكفى وحده لتدهور النظام والعمل والخدمة فى القناة ، ولكن ادهشهم وأدهش العالم أجمع ان الامور سارت على خير ما يرام ، وأننا قدرنا على حمل العبء وحدنا فى كفاية مذهلة ، وكانت ثقتنا بأنفسنا وجلدنا وصبرنا من أكبر الدوافع التى أثارت حفيظة المستعمر فدفعته كالحقود الاعمى لان يشن علينا العدوان المسلح بعد ذلك بوقت قصير .

ولقد أثبتت السنوات العشر التى مضت من عمل الثورة أن حرب الخبرة أو حرب الثقة كانت من الاسلحة التى يعمد اليها الاستعمار من وقت الى آخر وبخاصة حين تحيط الزوابع بالسفينة أو يهددها الاعصار ، ولكننا استطعنا ان نقف فى معركة الاكتفاء الذاتى فى كل الميادين الاقتصادية والثقافية والقانونية والصناعية والزراعية والعسكرية .

ويكفى لنضرب المثل على ذلك أن نتصور مقدار الخبرة الاجنبية التى صاحبت رأس المال الاجنبى الذى دخل بلادنا طيلة السنوات

العشر الاخيرة والذى لم يزد على ثمانية ملايين جنيه احيطت بحدود وتحفظات لم تكن تخطر على بال الاجنبى ذات يوم .

انماء الثقة وتغذيتها ورعايتها وبثها فى النفوس رسالة المثقفين فى كل فرع من فروع الثقافة وكل جانب من جوانب حياة المجتمع، لقد آن أن يعرف الناس جميعا أننا شببنا عن الطوق ، وأن عهد الخبراء الاجانب المتغلغلين فى أدق دقائق حياتنا قد انتهى الى غير رجعة ، وأننا لا بد أن نكتب تاريخنا بأيدينا حتى لو كلفنا ذلك وقتا أطول ، لان كل عميل أو وسيط أو دخيل لا يبرأ من الغرض ولا من المرض .

ولعل من عوامل استعادة الثقافة أن نلقن أولادنا دائما اصالة شعبنا فى حمل الثقافة والهداية والتحضر الى غيرنا من الامم ، فنحن لا نعانى من مركبات النقص ، ولا نتلهف على استيراد الخبرة الاجنبية لالمن لنا فى ريادة الفكر البشرى تاريخا عريقا .

***

نحن الجيل الذى تواعد مع القدر .. ومعنى ذلك أن الثورة ليست لجيلنا وحده ، انما نحن الثائرون ، نحن الذين فرض عليهم أن يحتملوا وعثاء النضال ، وشظف المعركة ، أما من أتوا بعدنا من الابناء والاحفاد فسيرثون تركة خفيفة الحمل ، لانهم سيسيرون فى طريق ممهدة قد أزيحت أعشابها وأشواكها وصخورها .

فيجب على ذوى الاذهان المتفتحة أن يثبتوا دائما لمن لحقه الاذى والاضرار نتيجة قانون ثورى يعيد الخير الى أكبر فئة من الشعب ، أن المستقبل فى الجيل المتواعد مع القدر أهم من الحاضر وأن رفاهية ابنائنا أمانة فى اعناقنا بمقدار ما نحمل من مسئولية نحو أنفسنا . بل ينبغى أن نحمل نحن العناء كما يحمل الرواد .. نحن جذوع النبات التى عليها ان تحمل الاوراق والازهار للحرارة والضوء والهواء ، ان الثمار ستكون لاخلافنا دانية القطوف .

لقد كانت المعركة التى تعيد موازين الحياة مرتقبة وآتية لا ريب فيها ، فقام جيلنا بثورة سلمية حقن فيها الدماء ، وجنب البلاد الويلات والشقاقات وحمامات الدماء .

ثورتنا لا تحارب الغنى لانه غنى ، ولا رأس المال لانه رأس المال، بل تحارب كل استغلال وانتهازية وجشع واصطياد للظروف واقتطاع للفرص وتحطيم للمبادىء .

ان تحرر الانسان هو الفكرة العليا التى نسعى اليها من خلال ثوراتنا السياسية والثقافية والاجتماعية ، وتحرر الانسان فى مجتمعنا يختلف عن مفهومه فى المجتمعات الاخرى .

ففى الدول الراسمالية تمنح الدولة الحرية السياسية للافراد فى ظاهر الامر ولكنها ترى ذلك فى مصلحة تحرر رأس المال وتحقيق الربح حتى ولو كان فى المجتمع فى الجانب الآخر من لا ينال الربح اطلاقا ، فالحرية السياسية قفاز حريرى ناعم يخفى حماية مصالح فئة خاصة من الناس .

والحرية السياسية فى المجتمع الاشتراكى الشرقى تكاد تذوب وتتلاشى نهائيا بجانب تدخل الدولة لحماية الشعب ، ولكنها فى نفس الوقت تفسح المجال أمام ديكتاتورية البروليتاريا ، ولا يمكن أن يصل الصوت فى ظلها الى درجة أعلى من الهمس الخافت المخنوق .

أما حريتنا فمكفولة فى حدود العدالة والكفاية ، والذين تتبعوا مناقشات اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى لم يدهشهم أن يقف رئيس الدولة امام ٢٥٠ مواطنا يمثلون كل قطاعات الحياة ليناقشوه ويناقشهم فى حرية وانطلاق ، بلا لف ولا دوران ، بلا نفاق ولا دهان لم يدهش المطلعون على حقيقة نفسية القائد من ذلك ، لان الرجل لا يحيط الكلمات بألفاظ معسولة ولا يخفى الحقائق وراء ابتسامة مصنوعة ، بل هو فى صراحته وشموخه وقوته يقف كالطود الاشم فى أحلك اللحظات وأحرج الاوقات .

ولم يملك الاعداء وهم يتتبعون تلك المناقشات الا أن يقروا بعظمة الدور الذى تلعبه بلادنا فى المنطقة ، وأنها جديرة بمهمتها الطليعية لترسى ديمقراطية اصلها ثابت وفرعها فى السماء .

تلك مفاهيم يرجى من المثقفين أن يتبنوا غرسها وتوضيحها وانتشارها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

– ٤ –

الثقافة فى خدمة الشعب

وضح من خلال ما سبق أن الثقافة ليست فى خدمة المثقف وحده يتوسل بها الى لقمة العيش ، أو لسعادة الولد أو رفاهية المحيط الضيق الذى يحيا فيه ، انما هى رسالة جليلة تمتد الى أوسع نطاق يشتمل أكبر عدد ممكن من المواطنين .

كما وضح كذلك أن الثقافة ملك للمجموع ، فاذا وجهت لخدمته لا يكون ذلك من قبيل المنح او الاهداء انما هى أمانة ترد لاصحابها ، أصحابها الذين هيئوا للمثقف أن ينال حظا قد يكونوا هم أنفسهم محرومين منه ، فاذا قيضت لخدمتهم يكون ذلك سدادا لدين ووفاء لعهد .. بمثل هذا الفهم تناولنا بعض التطبيقات العامة لمعنى الثورة الثقافية ، ونود الآن فى ضوء ذلك ايضا ان نوضح كيف تصبح مجالات التخصص العلمى والفنى والادبى فى خدمة الشعب لانها فى الاصل احتياجات الشعب ، الشعب هو الذى هيأ لها واستعد لاستقبال ثمارها ورصد من قوته وعرقه وجهده كل الامكانيات المادية والادبية ، وان الجحود كل الجحود ان تحتبس عنه أو لا تسخر فى سبيله .

وليس من المتوقع أن نسرد التفصيلات والتفريعات لهذه الخدمات ، انما نكتفى فى هذا البحث السريع الموجز ان نضرب الامثلة التى قد تهم المواطن العادى أكثر من سواها .

وليس من شك فى أن التبعات الملقاة على المثقف تكبر كلما عمقت ثقافته فى نوع تخصصه وكلما اتسعت وتجاوزت حدود تخصصه ، فالتبعة ادبية يلقيها المثقف على نفسه حتى ولو كانت

اكبر وأضخم مما يتوقعه المجتمع ، ولهذا السبب شرطنا فى الثقافة حين حللناها أى عناصرها اهمية الايمان والاخلاص فى القول والعمل ، وفى تقديرى أن تمدين الامم انما يقاس بمقدار ما يلقيه الآحاد – وبخاصة المثقفين منهم – على أنفسهم من تضحيات ومسئوليات ، اما ان يوكل كل انسان هذا العمل أو ذاك الى الدولة لتنهض به ، ضنا منه بالجهد ، وايثارا للسلامة .. فتلك ظاهرة لا تبشر بخير مطلقا ، ففى الشعوب الاخرى يترك الخبير أو العسكرى أرض الوطن والاهل والولد والزوج والبيت والاسرة ليذهب الى مكان ناء بعيد تفصله عن الوطن الام بحار وجبال ليعيش فى أرض غريبة ويخالط قوما غرباء ، ويحيا فى ظروف قاسية ، ولكنه سرعان ما يمرن على احتمال هذه الظروف ويتفقه اللسان الغريب ويستوطن الارض الغريبة ليؤدى رسالته نحو الوطن ، التى يراها كبيرة جليلة جديرة بالبذل والتضحية ، فاذا صح ذلك فى ظاهرة الاجنبى النازح الذى قد يكون دافعه الاستغلال أو المغامرة أو خدمة الاستعمار أو اى دافع من هذا القبيل ، فأولى أن يكون احتمالنا وبذلنا فى سبيل الدوافع النبيلة وفى سبيل الوطن على أرض الوطن ، وفى سبيل القوم الذين هم قومنا .

ان الشعور بترك كل شىء صغر او كبر للدولة شعور مقيت كريه ينبغى أن نتخلص منه ، وان نقتلع جذوره اقتلاعا تاما مع كل غرائز التواكل والانانية ، وهذا هو المقصود من نقل الثورة الى كل فرد من افراد الشعب ، وهذا هو المقصود كذلك من عبارة الرئيس الصادقة «أن الشعب كله جيش الثقافة» .

وما سأذكره فى الصفحات القادمة هو ما ينبغى أن يحتمله المثقف المتخصص من تبعات ازاء مجموع الشعب ، وما ينبغى كذلك ان يحتمله مجموع الشعب ازاء هذه التبعات ، وبين الاخذ والاعطاء تتبلور حول الثقافة كل الآمال ، وتتركز فيها انطلاقات النضال ذلك لان المثقفين اذا نظر اليهم نظرة مستقلة عن الشعب، ادى هذا الى انفصال فى قوى الزحف الشعبى ، وادى الى اعتبار المثقفين طبقة خاصة .. وهذان خطران عظيمان يهددان عزمة

البناء فى المجتمع الاشتراكى الذى تحشد فيه جهود المجموع ، بلا طبقية ولا تميز .

أ ـ فى الفن ..

يقول الرئيس فى احتفال الدولة سنة ١٩٦٠ بالفنانين والعلماء:
«ان الفن فى حقيقة أمره مظهر حى للحرية ، لانه انطلاقة الانسان الحر لاستكشاف نفسه» .

«الفن سلاح قوى فى معركة الحرية ضد الاستعمار وضد الطغيان ، وما زالت فى ذاكرتنا جميعا مشاهد من أعمال فنية كانت من أكبر مصادر الالهام فى كفاحنا الوطنى ، كذلك ما زالت فى أسماعنا أصداء أناشيد كانت من أقوى ما حملنا معنا الى ميدان القتال من عتاد ، كانت الكلمة فى مثل طلقة الرصاص فى نضالنا وكذلك كان النشيد وكانت لمسة الضوء واللون على الورق» .

بمثل هذا الارتباط بين الفن والحرية يكون فهم الثورة الثقافية ويكون جوهر الثورات الثلاث التى اضطلع بها شعبنا فى هذه الفترة الحاسمة ألا وهو «تكريم الانسان» فبمقدار ما يعبر الفن عن رقى الانسان تكون رسالته فى ترقية نوع الانسان .. ولهذا لا اظن بحال من الأحوال أن التعبيرات الحسية الموغلة فى الاثارات الجنسية تدخل فى نطاق الفن ، لانها تقرر حقائق النوع ولا تصور تسامى هذا النوع ، ولكى أكون واضحا أرى أن الاغنية أو القصة أو المسرحية التى لا تكاد تتجاوز منطقة الحس والاشتهاء تكون قريبة من منطقة الاصل الحيوانى ، وفنية العمل الفنى تقاس بالابتعاد عن الدائرة الحيوانية والدخول فى الدائرة الانسانية ، بل فى قدرة الفن تجاوز الدائرة الانسانية الى النطاق الاثيرى الشفاف وعندئذ يكون دنوه من درجة الكمال والسمو .. ذلك لان كل انسان فى مقدوره أن يحس الاحاسيس الجنسية ، ولكن ليس كل انسان فى مقدوره أن يتسامى بهذه الاحاسيس وليس كل من يتسامى بهذه الاحاسيس بقادر على تصوير هذا التسامى .. وذلكم هو الفن ..
الفن هو القدرة على التعبير عن الاحساس السامى ..

نحن فى عهد ثائر ، لا يعرف هذه الفنون التى تكبلنا بمناطق الاحساس الدنيا ، فاذا تذرع أصحاب الاغانى الخليعة من مؤلفين وملحنين ومطربين وناشرين بأن الشعب يكلف بهذه الشهقات والتشنجات والتعبيرات البذيئة والكلمات المثيرة فقد وهموا وتجنوا .. وكم من الجرائم ترتكب باسم الشعب .

ان طبيعة شعبنا الكدح والطموح ، ثم من طبيعته كشعب مؤمن بالمثل والروحانيات أن يتعفف عن ان ينطق أو يسمع ما يخدش الوقار .

لقد أعجبت جماهيرنا بالافلام الهندية التى عرضت عندنا فى السنين الاخيرة ، واقبل عليها الناس من كل الطبقات أكثر مما يقبلون على الفيلم المصرى ، رغم خلوها من هز البطن ومداعبة الجنس وتشنج الخصور وترقيص الحواجب والعيون والتلميح المبتذل .. لقد وجد الناس فى الفيلم الهندى اشراق الروحانيات وسمو الحب وجمال الطبيعة ونبل المشاعر واحتشام الصورة وتألق الطبيعة بالزهر والطير والنسيم ، وأمتعتهم موسيقاه التى تصور ثراء العاطفة وسحر الجمال .

ان العيب كل العيب أن نتناول مسائل الجنس كأنها غاية . ويمكن أن نتناولها كمشكلة لها خطورتها فى تعقيد النفس ، ثم نهيىء الفن بوسائله المختلفة ان يبسط العلاج لهذه المشكلة ، حتى يسهم الفن فى حل العقد وازالة الآثار الناجمة عن الكبت والحرمان وسوء التربية وخطأ التوجيه .

الفيلم الذى يصور ليلة الغرام والصدور المتقابلة والشفاه التى لا عمل لها الا الاحتراق فى قبلات الهوى العطشى والنهود التى تتأرجح لتثير ثم تنتهى هذه المناظر المخجلة بالخطيئة ثم يطالب المؤلف والمنتج والمخرج جمهور الناس بأن يغفروا للخطاء لان الظروف كانت أقوى ولان الطريق مسدود بهذه النهاية ، ولان الظروف تفرض علينا عملنا وسلوكنا .. مثل هذا الفيلم لم يبتعد اطلاقا

عن منطقة الاحاسيس الدنيا ، واحتبس فى جوها الخانق المظلم ، وكان فتح نافذة صغيرة مضيئة كافيا لتغيير الهواء واشاعة الضوء وتبين وجه الحقيقة والتماس طريق النور .

وما يصدق على الفيلم يصدق على كل الاعمال الفنية التى تدور فى مثل هذا الفلك ، والحقيقة اننى القى بعض اللوم على الاتجاهات العامة لمجتمعنا ، وأناشد المثقفين ـ قبل غيرهم ـ أن يحشدوا الجهود لتدارك أخطارها ، وعذرى فى بسط هذه النقطة اننى أكتب عن ثورة .. والذى يكتب عن ثورة يلزمه أن يميط اللثام فى صراحة عن الثغرات والا كان كاذبا مع نفسه ، حين يتناول الثورة بعقلية هادئة .. هدوء المنافقين ..

مجتمعنا حتى هذه الساعة لم يحدد ملامحه الذاتية بعد ... هل هو مجتمع منطلق يبيح الانطلاق والسفور كالمجتمعات الاوربية والامريكية ، أم ما زالت المرأة فيه خاضعة للتقاليد الشرقية والدينية التى تلزمها البيت ، أو تخرج لطريق بلا تبرج ولا تزين ولا بهرجة ؟

هل نحن شرقيون أم نحن غربيون ؟

الحقيقة اننا لا الى هؤلاء ولا أولئك ، وقد أدى هذا الى ذبذبة فى سلوكنا ، عقولنا متحررة وعواطفنا فى كثير من الاحيان محافظة ، وهذا الصراع بين التحرروبين المحافظة وضعنا فى مشكلة . اننا أسأنا توجيه بناتنا ، ابحنا لها أن تذهب الى الجامعة والوظيفة وهذا جميل لا غبار عليه ، ولكنها مضطرة الى التزين الذى قد يخرج عن الجادة فى بعض الاحيان .. وكل تنبيه أو نصح لها بالتخفيف من هذا التزين يتعارض مع الاتجاه العام ، وكل دعوة الى الاعتدال لاتجدى ، ثم نحن لانستطيع السيطرة على وقتها الذى لا نملكه بكامله وبالتالى لا يمكن ضبط القياد لاننا أعتقنا الزمام ..

كيف نجبر من تحرر ؟ ثم كيف نضمن لمن تحرر ألا يتجاوز الحـــدود ؟

ان عدم تحديد اتجاهنا الاجتماعي قد خلط الحب باقتناص المتعة لان البيت لا يبيح الاختلاط المنظم ، بينما يمكن في خارج البيت أن ينال الاختلاط .. وفي مثل هذا الجو تنمو الفنـــون التي تعبر عن القلق ، وتنتشر المعاني الخاطئة للفظـــة الحب ، وتختلط على أبنائنا وبناتنا مجموعة كبيرة من الحقائق ، ونحن ندفن رءوسنا في الرمال ولا نجابه المشكلة ، والحياة تســـير والمشكلة تزداد حجما واتساعا وعمقا

***

الاذاعة والتليفزيون وســـيلتان ديمقراطيتان لا تحتكرهما فئة من الناس دون فئة ، كما أنهما متاحتان لكل بيت ولكل فرد ولكل سن وهذا ما يجعل لهما الاهمية الكبرى في تذويب الفـــروق بين الطبقات في المجتمع الاشتراكي،خاصة اذا وضعنافي الحسبان أننا ما زلنا نعاني من انتشار الامية القرائية بين معظم المواطنين

وحين نستمع الى الاذاعة ينبغي أن نجد خيطا واضحا تتجانس من حـــوله أهداف موحدة تنقلها الاغنيـــة والتمثيلية والفكاهة والمنوعات والاحاديث ، لان من التناقض ان نســـتمع الى تمثيلية مغزاها الكفاح والاستبسال واسترخاص الحياة في سبيل المثل العليا ثم نستمع في أثر ذلك الى أغنية تستعذب التميع والليونة والتفاهة ، ولا عذر في ذلك لارضاء كافة الامزجة والاذواق ،لان من المفترض أن ذوق المستمع يأبى التضارب فيما يســـمع . وكل نشاز في المواد الاذاعية يذهب بنفوذها ونفاذها ..

ويمكن أن نتخذ من المواد التي يستحسنها كافة المستمعـــين بداية لاستقراء ذوق مشترك يجتمع فيه الناس أو يكادون ، ومن هذه البداية يمكن تخطيط معالم الطريق لتنمية هـــذا الذوق

وتوجيهه وترقيته ، ولقد نجحت التجربة كثيرا وكان يمكن استغلالها فى هذا الصدد حين قدمت الاذاعة عددا من الاغانى الناجحة والبرامج الهادفة التى صورت مراحل كفاحنا فى مقاومة الاستعمار والعدوان ، وفى عملية البناء والعمران ، وفى التغنى بمكاسبنا الثورية وفى وصف مشاهدنا الطبيعية الخلابة .. وكان نجاح هذه الاتجاهات كفيلا باثبات قدرة ذوق الجماهير على تمييز الغث من الثمين ، وأنه ذوق سوى لا عوج فيه .

والاذاعة فى المجتمع الديمقراطى يرجى منها ان تزيل حواجز اللغة التى تقسم الناس تقسيما حادا الى متحدثين بلغة فصيحة ومتحدثين بلغة يسمونها العامية ، فقد آن الاوان أن تهيىء الاذاعة نوعا من التقارب بين الخاصة والعامة ولتكون للفن لغة مشتركة يفهمها ويستسيغها كل الناس ، ولحسن الحظ فان اللغة العربية تتميز بالثراء فى اللفظ بصورة تجعل من اليسير انتهاج خطة مدروسة ترضى معظم الاذواق ، والاذاعة بحكم اعتمادها على المادة الفنية — والفن يعتمد فى صميمه على العاطفة ، والعاطفة قسيم مشترك بين الناس جميعا لا يكادون يتفاوتون فيها — تستطيع ان تلعب دورا خطيرا وهاما فى هذا السبيل .. ويومها سيجد كتاب القصة والمسرحية والاغنية والمقال الصحفى أن العقبة التقليدية قد زالت من الوجود .

وينبغى أن تخفف الاذاعة من دوران برامجها حول الاغنية كأنما الاغنية هدف هذه البرامج ، وان تكثر المواد التى تجمع بين الفائدة العلمية والترفيه الجذاب ، وانى لاذكر كيف كنا نحيل أسئلة الطبيعة والكيمياء والجغرافيا والجيولوجيا التى كانت تعد لبرنامج أوائل الطلبة بحيث نوفق بين الحقيقة العلمية وبين الطرافة المحببة التى تجعلها تصل الى سمع المواطن العادى وتشده الى الراديو وتحبب اليه متابعة الموضوعات التى تبدو وكأنها بعيدة كل البعد عن حجرات الدروس وبطون الكتب .

يصل صوت الراديو الى ابعد الاكواخ فى القرى النائية ولهذا كانت مهمته فى التثقيف والاعلام والتوجيه على جانب عظيم من الخطورة اذا أحسن استغلاله ، وان مرحلة الاندفاع الثورى التى نجتازها الان فى حاجة لتغيير كثير من القيم المألوفة فى الريف ، فالرضا والصبر والشكران طابع الفلاح عندنا ، حتى لقد تسلمه فى كثير من الاحيان الى الاستسلام للمقدور والمصير ، ونحن نود فى هذه الاونة الدقيقة من مراحل نضالنا وكفاحنا ، ان نستبدل بذلك تطلعا دائبا ودائما الى مزيد من تغير الحال نحو حياة أسعد وأفضل ، ولا يكون ذلك الا اذا أظمأناه دائما الى الطمـــوح وان يتشوف على الدوام الى مزيد من الحقوق التى تحفظ له كرامته وترفع هامته ، وبهذا نضمن ان يحافظ على كل مكسب ثورى مهما تقلبت عليه عوادى الزمان ، كما نضمن أن يؤدى دوره كمواطن له شخصيته القوية الجارفة .

***

ينبغى ان تختفى من الوسط الفنى فكرة « الشباك » أى فكرة « تحقيق الربح » لان هذه النظرة ان صحت فى المجتمعـــات الراسمالية لا يمكن قبولها فى المجتمع الاشـــتراكى ، ان المهم فى هذا المجتمع نوعية العمل الفنى ، ولهذا نطلب للمنتج والمخـــرج والممثل والمؤلف ان يتعاونوا جميعـــا فى تخطيط عملهم المشترك لخدمة أهداف المجتمع بغض النظر عن الاعتبارات المادية ، واذا كان امتداد الفن الى واقع الحياة جديرا بحيويته ، فان الجمهور سيقبل على مشاهدة الفيلم او المسرحية التى تنقل صورة حياته ولهذا لن يتهدد « الشباك » بصورة مخيفة بل سيكون الاقبال كافيا لتغطية كل النفقات والاغراء بالمزيد من جيد الاعمـــال .. واظننا نعرف جميعا ان المسرحية الواحدة قد تعرض على مسارح لندن او نيويورك عشر سنوات متصلة وبلا انقطاع ، وما كان ذلك الا لان الدراسة الدقيقة للعمل الفنى من بدايته حتى نهايته رائد كل من يسهم فيه بعمل ما صغر او كبر .

الحرب الثلاثية

ان الأسرار أدوات حادة .. ولذا يجب عـــزلها عن الاطفال والحمقى ...

«سير مارتن مارأول»

هل كان ثمة تواطؤ بين بريطانيا وفرنســا واسرائيل ؟ .. واذا كان ذلك كذلك فمن الذى تبناه ؟ .. وفى أى تاريخ تم ؟ .. وماذا كان يدور بالاذهان فى شأنه ؟ وما هى خطته ؟ وهل كان ايدن يعلم من قبل خطة الهجوم الاسرائيلى ؟ ومتى علم بها ؟ هل كان يعرف ان الفرنسيين سيمنحون تأييدا مباشرا لاسرائيل ؟ وهل كانت اسرائيل على علم مقدما بالانذار الانجليزى الفــرنسى ؟ واذا كان الأمر كذلك فما الذى فهمته اسرائيل منه ؟ ..

ان محاولة صياغة الفقرة الاخـــيرة من القصة انما هى من قبيل الاجتهاد الذى يقوم به المخبرون الصحفيون .. لأنه لازالت ثمـــة طلاسم يصعب فك رموزها ، وهنــــاك كثير من الدلائل الغامضة ، وعديد من الافتراضات ، ورواية ايدن الماثلة أمامنا التى تجعل الامور أكثر مشقة وصعوبة.

وقد حاول سير انتونى ازاء هذه الامور الحيوية ألا يقول شيئـا على الاطلاق ، وبهذا ترك الطريق ممهدا للالهــام .. لقد سرد ايدن قصة ، ولكنه لم يذكر فيها كلمة التواطؤ أو ما يرادفها ، لم يذكر فى جملة واحدة أن أحدا قد اتهمه بهذا التواطؤ .. أنــكر كل شىء لانه لا يعترف بأن هناك شيئا يمكن انكاره .. انه يعترف بالقليل ، وما يعترف به بالفعل ، ثبت بالدليل القاطع غموضه الا اذا أجـرينا له تحليلا دقيقا وشاقا .. وعلينا أن نمحص الموضوع كله ، وأن نحذر القارىء من أن تترنح رأسه من التفكير فى بعض مراحل الموضوع . علينا فى البداية وقبل أن نقتحم هــذه « الغابة » من الغموض ، أن نذكر ملاحظة أو ملاحظتين :

اما الصحافة ..

فبرغم ارتفاع نسبة الامية عندنا . فانها فى مجتمعنا الجديد مأمولة فى حمل رسالة قومية ضخمة ، ولقد حررتها الثورة من ربقة راس المال الذى كان يفرض عليها نوعا من الديكتاتورية ، فأحالها الى تجارة تخدم مصالحه ، وتنشر مبادئه ، وكان سيف « الاعلان » يهدد الصحيفة بالافلاس او النقص فى الربح ، فكانت تتنكر للصالح العام فى سبيل ارضاء رأس المال ، ولكنها الان لا تخضع لقيد من القيود طالما كانت فى اتجاه يخدم الشعب .

ويمكن ان تصبح الصحافة ثروة وطنية هائلة اذا اتخذت منبرا ينشر أهل الفكر منه مبادىء الحرية والعدالة ، ويسمح لاختلاف الرأى قصد الوصول الى ما من شأنه تحقيق سعادة أوفر للمجموع

والصحفى فى المجتمع الاشتراكى يجب أن يتصف بالعلم والعقل والخلق معا حتى يكون مفكرا أمينا لان الفكر المستقل يحفظ له ثبات شخصيته ونموها بعيدا عن المؤثرات والمغريات ودواعى الانحراف المختلفة ، والفكر المستقل يجعل الصحفى فى عمله ينظر الى الاشياء كما يراها من زاويته لا من زاوية طائفة محركة اخرى ذات غرض مضاد لنفع المجتمع .. وبهذا يصبح قائدا لا مقودا ، فالناس يتوقعون منه دائما ان يسمو بفكره وقلمه الى مستوى الريادة والقيادة ، وهو يلتقى بهم كل صباح أو مساء لينفذ الى قلوبهم وعقولهم كأنه بالنسبة اليهم صديق حبيب على موعد لقاء مضروب .. وتلك هى المعانى البعيدة التى كان يقصدها الرئيس حين قال « نريد صحافة ذات رسالة ، لا صحافة هدفها التجارة »

ب ـ فى الادب ..

يرى بعض الناس ان الادب قد قصر فى التمهيد للثورة ، حجتهم فى ذلك ان الثورة الفرنسية انما الهبتها والهمتها كتابات فولتير وأرسين وكورنى وموليير وغيرهم بينما لم تظهر أعمال

أدبية مصرية صريحة جريئة عديدة قبل عام ١٩٥٢

وقد يكون فى ظاهر هذا الكلام بعض الحق ، اذا قارنا نسبة الانتاج الادبى المصرى بالانتاج الفرنسى ، ولكن بعض الترفق فى الحكم قد ينصف الادب .دباء .. ذلك لاننا لو مضينا نفتش عن الاتجاهات التى حررت الفكر المصرى من ربقة الالف والتقاليد — وهذا بطبيعة الحال بداية كل تمرد على الخطأ الاجتماعى .. لوجدنا أن الادب قد حمل مشعل تحرير الذهن من القيود التقليدية التى كبلته خلال العصور .. خذ مثلا كتاب «فى الادب الجاهلى» لطه حسين ، فان أهمية هذا الكتاب لم تقف عند الجانب الاكاديمى الذى لايتعدى دارسى الادب فى الجامعة ، بل انها امتدت الى أبعد من ذلك ، فلقد ناقش الكاتب قضية فكرية عامة تمس كل لون من ألوان المعرفة تسيطر عليه أفكار ينبغى ان يتقبلها الناس فى استسلام مطلق هادىء ، ولهذا تعد ثورة الكتاب ثورة على الجمود الذى ساد الربع الاول من هذا القرن والذى امتدت آثاره فى السياسة والاقتصاد والقانون .. وقبيل الثورة أصدر طه حسين «المعذبون فى الارض» وكان «صالح» نموذجا للمصرى الذى يحصده الظلم والطغيان ، ولقى الكتاب ما لقى ، ولم يتح له أن يرى النور الا بعد قيام الثورة .

والمتتبع للانتاج الادبى قبل الثورة يلحظ كثرة منه لا تقف عند الايماء والرمز ، بل كان بعضها صريحا ساخرا عنيفا ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه توفيق الحكيم عن الاحزاب والديمقراطية عام ١٩٤٤ فى «تحت شمس الفكر»

«ليس فى مصر حزب بالمعنى الحقيقى لكلمة حزب كما تفهم وتستعمل فى النظم الديمقراطية الصحيحة ! انما فى مصر «فرق» منفصلة تسمى احزابا لا هم لكل فرقة منها الا « توزيع » المقاعد البرلمانية والحصول على المناصب الوزارية وتنظيم حركة «تذاكر» الانتخاب .. أما برنامج «الرواية» فليس من هم أحد التفكير

فيه ! فالامر فى ذلك يسير على نمط حفلات التمثيل «ومتعديها» الذين يركزون كل نشاطهم فى مسألة توزيع المقاعد وتحصيل قيم التذاكر .. أما مسألة «البروجرام» والغرض من الحفلة وما الى ذلك فلا يلتفتون اليه ولا يجعلونه من شأنهم . وانى لاحب هنا أن أقول انه قد آن الاوان لان يسأل الشعب عن البرامج قبل شغل المقاعد ، ان الشعب اليوم قد تغير فى نظرى ، وان عقليته قد تكونت وأصبحت له رغبات حيوية تمس صميم غذائه اليومى وحياته المادية .. انه يطالب اليوم أن يعيش لامعنويا فقط كما كنا ننادى بالامس ولكن ماديا أيضا عن طريق اللقمة المتوافرة للملايين من المحرومين ، نحن لدينا برلمان لا نجد فيه ممثلين للملايين من أبناء الطبقات الفقيرة ، يدافعون عما تراه هذه الطبقات منهضا لها ، مصلحا لحالها ! ما معنى الديمقراطية اذا لم تكن هى تمكين طبقات الشعب كلها على اختلاف مراتبها ومطالبها من الدفاع عن نفسها بنفسها تحت قباب المجالس النيابية ؟ ما من برلمان فى أى بلد ديمقراطى فى العالم يعرف هذا الوضع الذى نحن عليه .. لانه ما من أحزاب فى العالم تكونت هذا التكوين الشخصى المرتجل كأحزابنا المصرية ، ذات الصبغة الشخصية الواحدة المتشابهة :

فى البلاد الاخرى أحزاب ، ذات مبادىء مقررة ، كل منها يدافع عن حقوق طبقة من طبقات الامة ، مما ضمن تمثيل الطبقات المختلفة على نحو يكفل التوازن بين المصالح بينما أحزابنا ، على تعددها وكثرتها لا تمثل فى حقيقة الامر غير طبقة واحدة هى طبقة الملاك .

وهذا كلام يدل دلالة قاطعة على تفهم الادب لمشاكل المجتمع ، وعلى مشاركته الجادة فى تشخيص الداء ووصف الدواء فى عصر اختلطت فيه القيم وانطمست معالم الطريق ..

ومن قبيل ذلك ما كتبه المرحوم محمود الخفيف عن الاسرة

الحاكمة وطغيانها وجهلها واستبدادها فى كتابه «أحمـــد عرابى» حيث أمسك الرجل بميزان الحق والتاريخ ووضع هـذه الاسرة الغاشمة حيث ينبغى ان تكون .. ولقى الكتاب ما كان منتظرا له من جزاء بطبيعة الحال !

والذين يقرأون بين السطور كانت تعجبهم هذه القصص وهذه الكتابات عن عهود الفساد والطغيان فى التاريخ ، وكان التصوير الادبى لها يعمد الى مدها فى أغوار الواقع الذى نحيا فيه ، وكان لها بذلك التأثير الفعال فى شحذ الهمة وإثارة الحماس نحو حياة كريمة ، لا يمكن الوصول اليها الا اذا اقتلعت جذور الفســاد من كل أرض ..

وأيا ما كان فما وقف الادب ذات يوم موقف النفاق ، ولا كان أداة موجهة ضد الشعب ، ولا كان عاملا من عوامل تزيين الظلم الاجتمـــاعى ..

ولقد يقال ان الادب بعد قيام الثورة لم يسر بنفس السرعةالتى سارت بها الثورة ، حتى لقد بدا متعثر الخطو ، مشتت الغاية.. والواقع أن مرد ذلك لاختلاف طبيعة وسرعة الادب عنطبيعة وسرعة الثورة ... فالادب يتمهل ويستأنى حتى يصل العمل الثورى الى مرحلة مكتملة وحتى يوشك ان يؤتى اكله ، والا لو صفق الادب لكل تجربة جديدة ، ثم أثبت التطبيق العملى فشل هذه التجـربة .. لبدا الادب قاصرا أو منافقا ، ولشكك فى القيم الثابتـــة التى ينبغى أن تتوافر له .. ويعزى الادب فى ذلك أن ثورتنا كما قلت ليست جامدة محصورة بين دفتى كتابه ، وانما هى رهينـــــة باحتياجات الناس ، وبظروف التطبيق ، وبملابسات الواقع ،وقد تتغير ظواهر التطبيق وقد تلغى حسبما تسفر عنـه مصلحـــة الشعب .. والادب كتعبير عن موقفنا من الحياة ، لا يمكن ان يصل الى قوته وذروته الا اذا استكملت البواعث قوتها وانتهت الى ذروتها ، وبذا لا يبدو الاديب صاحب موقفين من شىء واحــد ،

وانما يبدو جهير الصوت ، نفاذ البصيرة ، مسموع الكلمة ، ناضج الفكر ..

وظيفة الادب أن يغذي الشعب بأفكار جديدة لحياة أرقى وأسعد، وأن يدعو لكل مكسب ثورى ويكشف عن وسيلة استثمار هذا الكسب لتحسين المستوى المعاشى والاستقرار النفسى ، وبهذا يمهد لمزيد من الترقى ويربط قلوب الناس وعقولهم بالثورة وهى تخطو نحو طموحها وأهدافها ، ولهذا فنحن نريد من الاديب أن يوجه انفعاله نحو القرية والقرويين ، فيجعل منهم مادة أدبه، وسيجد كذلك فى بيوت العمال ، وفى أكواخ المحرومين صداقات وطيدة ينادى من أجل رفعة شأنها عن طريق ما يكتب ويصور

لقد كفى السوق الادبى ما غمره من كتابات عن أبناء المدينة وبناتها ، وعن لهوهم وعبثهم ، وعن مراهقتهم وسفاهتهم ، حتى لقد أصبحت كل قصة لاتمس هذه الجوانب سقيمة ومتزمتة لا تحظى باحتفال الناشرين !

لقد كفى السوق الادبى ما غمره فى سنوات ما بعد الحرب من كتابات تدور كلها حول الخطيئة ، وليتها تنقل لنا الخطاء وهم ينهضون من عثراتهم ليسيروا فى طريق الغفران ، بل انها تتفنن فى تصوير لذائذها ، والاستمتاع بها ، بما نخلعه من أوصاف وما تلتمسه من أعذار للزوجة الهاربة ولزير النساء وللذة المختلسة، وللمتمردين على المعانى المقدسة باسم العاطفة الجارفة .. ولا أحب أن أسترسل فى ذلك فان نماذج هذا الانتاج — للاسف الشديد — تطفو الان على سطح المستنقع !

فاذا كنا نريد ثورة للادب فيجب أن نصطلح على فهم كلمة «الحب» ، وأن نشيع فى مجتمعنا الجديد معناها السوى القديم ، وانها تبعد بعدا كبيرا عن «غريزة النوع» ولذة الحس ، وكبوة الخطيئة» بل انها معنى من المعانى المقدسة التى تعمر القلب ،

ونعشه ، وتفتحه ليستقبل الحق والخير والجمال . ولينعم بالطهر والنقاء ، فاذا غمر الحب القلوب هيأها لكل ماتريده ثورتنا من تعاطف وتكامل واشراق ..

ومن الخطأ الخاطىء أن يتذرع أدعياء الادب بانهم بأسلوبهم ذاك يصورون الحياة كما هى ، وأن كل اضافة أو تعديل لهذه الصورة زيف وباطل ونفاق باعثه ارضاء المجتمع وسدنة الفضيلة المتعصبين ! ..

وهذا كلام خطير .. فمن قال ان وظيفة الادب نقل الحياة كما هى ، ان الادب هو الحياة متفاعلة مع عواطفنا وأحاسيسنا ، فاذا كانت عواطفنا سوية عكست لنا الحياة فى صورة فاضلة تماما كما تعكس المرآة الصور والرؤى بمقدار جلائها ودرجة نقائها ..
واذا كان الادب نقل الحياة كما هى .. فهل من الادب مثلا أن أقول لك فى وصف وردة متفتحة .. انها تتكون من خمسة أوراق ولونها أحمر وغصنها أخضر وتعيش فى الحديقة وتروى بالماء .. !

فيا معشر الادباء .. اذا كنتم تريدون انتفاضة حقيقية للادب .. افتحوا النوافذ جميعها لتدخل الشمس والنسيم والعطر الى القلوب التى أغلقتم من حولها الابواب والنوافذ ، وألقيتم بها الى الظلام لتهرب من التقاليد ، ولتختلس اللذة ، ولترضى الطيش .. باسم الحب .

يا معشر الادباء .. انقلوا تجاربكم الى الصراع الذى تحاول ثورتنا أن تغرسه فى النفوس فى سبيل حياة أجمل واروع ، ومهمتكم أن تشيعوا فى الجماهير المعانى الجديدة للمجتمع الجديد
ولقد تخدعنا لاول وهلة ظاهرة هامة ان هذه الكتابات التى تدبجونها عن الفلاحين والعمال وسكان حوش بردق ودرب شكمبه وكفر البطيخ — تخدعنا فنعدها ضمن الادب الاشتراكى المأمول

.. ولكن الحقيقة انها خاليــــة من حيث الفكرة والصياغة والتأثير من المعنى الادبى والفنية المرجوة فى كل انتاج جاد .. «وليس مجرد رش الاشتراكية على ادب غير جيد ينتج ادبا اشتراكيا» كمـــا يقول ايليا اهرنبرج ، انما الاشتراكية كما ينبغى أن يصورها الادب أبعد من هذا ، انها انفعال أدبى أصيل ووعى اشتراكى عميق .

وقد تصادفنا فى الثورة الادبية بعض الظواهر التى قد تزعج الحريصين المحافظين على عمود الادب ان صح التعبير ..ولكننا ينبغى أن نترك للزمن اختيار الاصلح والاخلق بالبقاء ، فالشعراء الذين يريدون أن يتحرروا من القيود الكلاسيكية للشعر بأنه الكلام الموزون المقفى ، بدعوى ان هذا التحرر يخدم فى انزال الشــعر من برجه العاجى ليصبح فى متناول المجموع .. نقول .. اننــا مع اعترافنا بأن الشعر حديث النفس وان النفـــس اذا انطلقت ينبغى الا توضع امامها السدود والحدود والقيود ولكننا فى نفــس الوقت نقول أن النفس الشاعرة المطبوعة ستجنح الى ارتكازات من نوع معين تلهمها السليقة الشعرية ، وتغذيها الكوافى المستقرة من القراءة الموصولة والتمثيل الواعى ..

ومن الظواهر الادبية كذلك ان ننادى بأن يدخل المقال الصحفى الرصين الى الكتابة الادبية من اوسع أبوابها ، ذلك لانه قد آن الاوان لأن يتحرر النثر العربى من القيــود الزخرفية ، وألا تقاس درجة البلاغة فى الاسلوب بمقدار ما يزخر به من تشبيهات واستعارات ومجازات وكنايات ، وطباق وجناس وتورية .. فمن حين لآخــر يطالعنا كتاب صحفيون بمقالات متميزة بحيوية الوجدان ونفــاذ البصيرة والتحليل الدقيق فى موضوعات تمس حياة النـــاس ، وينبغى الا يقلل من أهمية هذه الكتابات أنها تحمل طابعا سياسيا ، فلقد كانت السياسة على مر عصورنا الادبية من أقوى الروافد التى غذت الشعر والنثر على السواء ، وهل شعر النقـــائض فى العصر الاموى واشعار المدح والهجاء والرثاء فى عصـــور الادب المختلفة قد خلت ذات يوم من حوافز السياسة ودوافعها ؟

ان السياسة اصبحت فى المفهوم الحديث : تمس حياتنا من جميع جوانبها ، ففيها تتفاعل مقوماتنا الاقتصادية والاجتماعية والقومية ، وفيها تلتقى أحاديث الآمال والآلام ، وفيها صور الماضى والحاضر والمستقبل .. والخلاصة انه يجب على الادباء ان يفتحوا أذرعتهم لاستقبال هذه الكتابات وانزالها منزلة الاصالة فى عالم الادب ..

ينبغى فى ثورتنا الادبية ، أن نتأثر بثورتنا الاجتماعيةوالسياسية فى ظاهرة معينة ، فنحن فى ميدانى الاجتماع والسياسة نكتب كل سطر بأيدينا ، ولا نستورد الا ما نراه صالحا لبيئتنا وظروفنا .. فمن الخير أن نقف متمهلين كأدباء عندما كتبه المستشرقون عنا ذات يوم . لقد كتب المستشرقون عن تاريخنا ولغتنا وعقائدنا كتابات قيمة ما فى ذلك شك ، ولكنها ليست برمتها على درجة سواء من حسن القصد وبراءة الغرض وصدق النية .. ونحن نعلم أن حركة الاستشراق قد بدأت كرد فعل للفشل الذريع الذى أصاب أوروبا فى الحروب الصليبية ، وأن شغف الناس بمعرفة المزيد عنا قد تولد ونما اثر حركات الاصلاح الدينى فى اوروبا ، واثر حركات الاستعمار الحديث .. وهذه كلها لاتضمن فىنهاية الامر أن نسلم بكل ما يقال عن تراثنا ، وأن نلقنه باحترام شديد الى إبنائنا .. فمهمة الخاصة من الادباء أن يعيدوا النظر فيما كتب عنا من قبل بأيدى هؤلاء المستشرقين ، خاصة من عرفت نفوسهم بالغرض والمرض ..

ينبغى فى ثورتنا الادبية أن يعكف فئة منا على احياء تراثنا القديم ، وتبسيطه وعرضه فى سهولة ويسر ، حتى يكون قريب المنال من ابنائنا وهنا ننوه بالجهود المشكورة التى تبذلها وزارة الثقافة والمجلس الاعلى للفنون والاداب والعلوم الاجتماعية والجامعات وجامعة الدول العربية .. ولكننا ما زلنا نطمع فى المزيد ..

جـ - فى العلم

نحن امة قد فاتها عصر البخار وعصر الكهرباء نتيجة ظروف خارجة عن ارادتنا ، ولم يكن ذلك نتيجة نقص فى ذكائنا او عجز فى كفايتنا ، ونحن نعلق اليوم اهمية كبيرة على علمائنا حتى لا نتخلف عن عصر الذرة ، ونطالبهم ان يبذلوا قصاراهم حتى نساير التطور العالمى الذى أوشك ان يمس ابراج السماء .

ومن بين الافكار التى تثبط همة العلم عن هذه الغاية أن يركز العلماء جهودهم فيما يعود عليهم بالربح المادى أو الكسب الشخصى ، لقد كانت ظروف المجتمع الرأسمالى تزين للمتخرج فى كليات الهندسة او الطب او العلوم ان يلتحق باحدى الشركات أو المؤسسات الاحتكارية لانها تجزل له الاجر ، وكان المبعوث الى الخارج الذى توفده الدولة ليستكمل دراسته يؤثر أن يظل بالخارج بعد انتهاء دراسته ولا يعود الى الوطن بعد حصوله على الدرجة العلمية لان الدولة الاجنبية تغريه براتب يفوق ما سيتقاضاه اثر عودته الى بلده ..

مثل هذه الاتجاهات المقيتة الكريهة ينبغى أن تختفى فى ظل المجتمع الاشتراكى الذى ينظر الى العلم على أنه فى خدمة المجموع وأن بريق الذهب لا يجوز بحال من الاحوال أن تعشى العين فى سناه بحيث يعميها عن الصالح العام ..

وليس من شك فى أن الجوائز الضخمة التى ترصدها الدولة كل عام لتشجيع العلم والفن والادب والتى بلغت هذا العام نحو مليون جنيه تتيح للمتفوق المبرز ان يلقى التقدير المادى فضلا عن القدير الادبى الذى يعترف به الوطن لابنائه فى عيد العلم من كل عام وهو تقدير يفوق كل كنوز الارض ..

***

نحن قوم سباقون لاتنقصنا المهارة ، وبلادنا مازالت حقـولا بكرا تزخر بالخير الوفير من المعـــادن والزيوت ، ومشـــاريعنا المرتقبة ضخمة هائلة ، وريفنا يستصرخ علماء الزراعة والحيوان والنبات والهندسة والطب أن يمنحوه الرعاية ، ولقد أسهمت الدولة فى وضع نويات عظيمة القيمة لنهضة علمية مباركة غايتها تحقيق رفاهية الفرد والجماعة فى المدينة والقرية وفى المصنـع والحقل والبيت والمدرسة ..

ففى عام ١٩٥٤ أنشىء المركز القومى للبحوث ليعمـــــل بكل الوسائل على رفع مكانة البحث العلمى ويشجع الباحثين وينشىء المعامل وينشر النشـاط العلمى فى البلاد ويعرف العالم الخارجى به، وتفرعت عن المركز لجان دائمة للصناعات الكيماوية والطبيعية والعلوم البيولوجية والزراعة والثروة المعدنية والهندسية ، وبه احدى عشرة لجنة مؤقتة تمس جوانب هامة من احتياجاتنـــا اليومية كلجنة الوجبة الغذائية ولجنة الطاقة الشمسية ولجنة تصنيع الادوية ولجنة دراسة مياه حلوان ولجنة الالات الحاسبة ولجنة الاسمدة العضوية ولجنة مشروع السنة الجيو فيزيقية ولجنة تحضير الجلوكوز ، وقد ارتفعت ميزانية المركز من ٢٢ الف جنيه الى مليون جنيه وكان يعمل به وقت انشائه ستة من الباحثين وصلوا اليوم الى ٦٠٠ باحث ..

وفى سنة ١٩٥٥ انشئت لجنة الطـــاقة الذرية التى تحولت سنة ١٩٥٧ الى مؤسسة ومن أهدافها اعداد المتخصصـــين فى البحوث الذرية وانشاء مركز للنظائر المشـــعة والكشـــف عن الخامات الذرية والمعمل الالكترونى ومعمل الطبيعة النـــووية مع المفاعل الذرية وانشاء قسم الكيمياء النووية

والمفاعل الذرى فى انشاص قد صار حديث الاوساط العلمية العالمية ..

وفى عام ١٩٥٧ انشىء المجلس الاعلى للعـــلوم وشـــهدت المحافل الدولية بروعة الخطة العلمية التى تنتهجها بلادنا وتعتبر

الجمهورية العربية المتحدة تانى دولة تنشر وتوزع منظمة اليونسكو خطتها العلمية بعد امريكا .

ولدينا فضلا عن ذلك معهد للصحراء ، ومحطة للبحوث العلمية المائية ، ومعهد البحوث الجنائية .. ولدينا الآن نحو ٤ آلاف عالم حاصلين على شهادة عليا بعد المرحلة الجامعية .

ولنا فى ٢٩ دولة فى العالم مبعوثون يزيد عددهم على خمسة الاف كلهم فى دراسات علمية . ووصلت ميزانية جامعاتنا الاربع ١٣ مليون جنيه فى السنة ، وميزانية الخطة العلمية عندنا فى السنوات الخمس اكتر من ٢٠ مليون جنيه .

وقد أخذت الدولة على عاتقها بعد انشاء وزارة البحث العلمى أن تركز نقط الانطلاق فى الثورة العلمية على أساس منسق مدروس . كما اعتنقت الدولة مبدأ التخطيط العلمى فى مجالات التقدم الاقتصادى والاجتماعى والثقافى بعد أن كان ذلك خاضعا للارتجال والاندفاع ..

وينبغى على اهل العلم ان يدركوا حقيقة رسالتهم فى البيئة التى يخدمون فيها وأن هذه الرسالة تتجاوز حدود الوظيفة والعمل ، فالمهندس بحكم اتصاله بالعمال والموظفين مسئول عن بالمبادىء الاشتراكيه . لا بطريق التلقين . بل بأن يكون هو نفسه نموذجا لاعتناق هذه المبادىء والعمل بوحيها والاستعداد الدائم للتضحية بنفعه الشخصى فى سبيل النفع العام ، ونفانيه فى البحث عن أسرع وسائل التنفيذ وأقلها نفقة وأعمها فائدة . فاذا راعى ذلك فيما يضطلع به من أعمال تتسم بطابع التعميم كمشاريع تنقية مياه الشرب والكهرباء ، والتصنيع لتوفير السلع وانشاء السد العالى ونحو ذلك امكن ان يكون المهندس احد بناة الاشتراكية وروادها والعاملين على نشر الرفاهية فى ربوع البلاد ..

والاطباء مسئولون عن سلامة الفرد فى المجتمع الجديد ، وهم

مطالبون بتوجيه قسط أوفر من الاهتمام نحو الريف حيث تكاد العناية الطبية هناك تنعدم ، وما زالت الامراض الفاتكة تحصد أبدان أهله وترفع نسبة الوفيات بينهم بشكل واضح ، لقد آن أن تختفى ظاهرة اقتصار الخدمات الطبية على المدينة وأن يرصد أساتذة الطب الكبار جهودهم لبيوت بعينها لانها تستطيع أن تدفع الاجر المرتفع ، هذا بينما تستقدم الدولة الى بلادنا صفوة الاطباء العالميين فيتخذون من المستشفيات العمومية مقرا لهم ، ويقصدهم المواطنون للعلاج بلا تمييز بين غنى أوفقير ..

واذا كانت ثورتنا متميزة كما قلت بالطابع الانسانى ، فانها تناشد الطبيب أن يعودبرسالته الى أصلها الانسانى ، وأن يتعاون الاطباء فى اختيار أحسن السبل للعلاج التأمينى خاصة بين محدودى الدخل ، تتعاون فى تمويله حصيلة تأمينية معقولة من المشتركين مضافا اليها قدر من الحكومة أو المؤسسة التي يتبعها المشترك .. ولقد قرأت عن المشروع الصحى الذى أعدته وزارة الشئون الاجتماعية للتأمين الصحى على العمال والذى يقضى بأن تدفع الشركة او المؤسسة ٦٪ من أجر العامل ويدفع العامل ١٪ من الاجر ويصل المجموع الى ٩٫٥ مليون جنيه — وهو مبلغ كبير اذا عرفنا ان ميزانية وزارة الصحة هى ٢٣ مليون جنيه .

ويمكن الاستفادة من هذا المشروع فى الطوائف الاخرى كالطلبة والموظفين ..

وان نظرة الى الريف ترينا أن عدد المواطنين به ١٦ مليونا يحتاجون الى نحو ٣٢٠٠ وحدة علاجية يشرف على كل منها طبيب اى سيكون تحت رعايته ٥٠٠٠ مواطن ، واكاد اعتقد ان اشتراك هؤلاء فى تمويل الوحدة مع الاعانات التى تدفعها المحافظات والمؤسسات الاهلية يكفل الامكانيات المادية اللازمة لان يخرج المشروع الى النور ويعمم فى كل القرى ..

وعلى هذا النحو يمكن ان يندمج المهندس ويندمج الطبيب فى المجتمع الاشتراكى

وما يصدق عليهما يصدق على كل مشتغل بالعلم فىجانب من جوانب حياة الشعب ، بحيث تخرج الافكار والنظريات من بطون الكتب لتصبح فى خدمة المجموع

د ـ فى الاقتصــــاد

نحن نمارس تجربة جديدة فى تنظيم المجتمع وبنائه ، وهـــذه القضية هى كبرى القضايا التى نضعها فى أعناق رجال الاقتصاد ، لاننا لانعتزم أن نستورد من خارج بلادنا نظاما اقتصاديا املته ظروف بيئة تغاير بيئتنا ..

مسئولية أهل الاقتصاد أن يلتمسوا من تاريخنا وعقــــائدنا وظروف مجتمعنا خطـــوطا عريضة لمنهج اشـتراكى واضـــح القسمات ، وان يضيفوا اليه خير مافى المذاهب الاخـرى بحيث لايناوىء المقومات الاساسية لشخصيتنا ، وليس من شك فىأن مرحلة التطبيق ستكون الفيصل فى مدى صلاحية كل نص من نصوص النظرية المستخلصة ، ولقد أبانت الســـنوات العشر التى مضت من عمر ثورتنا أن افكارنا تتسم بالمرونة والواقعية ، واننا نعد التطبيق محك ما فى الفكرة من ملاءمــــة وجوده ، كما أثبتت هذه السنوات كذلك أن افة ما اصابنا من تأخر وتقهقـــــر مديد طويل كان احتكار رأس المال واستغلاله وتشعب نفوذه حتى لقد امتد سلطانه الى العبث بمصير البلاد ، واختيار الحـــــاكم الذى يرضى هواه ويحقق أطماعه ..

والرئيس القائد حين طالب رجال الاقتصاد أن يعدوا أنفسهم لمهمة اعداد النظرية الاقتصادية يعلم أن لدينا من الاكفاء وذوى المقدرة ما يحققون الامل المرجو .. والواقع انه من المخجل أن يتعلم الطالب فى الجامعة انظمة اقتصادية لبلاد مختلفة عنـــا ، ثم

يخرج الى الحياة فلا يكاد يحس بأحاسيس الناس ولا بحقيقة مصالحهم ..

والتوعية الاقتصادية أمر لازم وحيوى ، لاننا قد راعينا فى وضع خططنا للمستقبل ان الدولة متضامنة مع الشعب فى انجاح هذه الخطط ، ولكى ينهض الشعب بدوره لابد أن يتفهم حقيقة اتجاهنا وأهدافنا ، وعلى ذلك لم تعد الثقافة الاقتصادية متميزة بالخصوصية بل أصبح حتما ان تكون ملكا للجميع لانها تمس حياتهم اليومية ، وعليها تتوقف رفاهيتهم وانتعاشهم ، وليس معنى هذا أن يتفهم الفرد العادى تفاصيل نظريات آدم سميث وأفكار انجلز ؛ انما نطالب بأن يعرف فى بساطة حقائق الاشتراكية العربية ويعرف الى جوار ذلك بعض اللمحات المقارنة فى المذاهب الاخرى .. لم لا يمكن تطبيق الاشتراكية الانجليزية عندنا ؟.. ولم لا تصلح فكرة المزارع الجماعية الروسية «الكولخوز» عندنا؟ ولم لاتفيد الرأسمالية الامريكية فى بلادنا ؟

ولا بأس من أن يقف الفرد العادى على بعض أسباب الاخفاق لمذهب بعينه ؛ فهتلر ـ مثلا ـ سخر الاقتصاد النازى لخدمة الحرب ، بل كانت الحرب فى نظره ضرورة اقتصادية لتحقيق أحلامه ونمو بلاده .. ولكن هذه الفكرة الجنونية الخرقاء أطاحت به وجشمت الشعب الالمانى أبهظ التضحيات .

ولا ضير فى ان يستوعب المواطن العادى خلاصات المذاهب المعاصرة كأن يعلم ان فى روسيا تتدخل الدولة لضمان حد أدنى لحياة كريمة للفرد ، ولكنها فى نفس الوقت تتيح الفرصة لديكتاتورية البروليتاريا ..

وفى أمريكا تطمع الرأسمالية فى تحقيق الربح ولو أدى ذلك الى اغراق الاسواق بما ليس ضروريا ، ثم هى لاتفكر فى ضمان حد أدنى لحياة الفرد ، وفى أمريكا ٥ ملايين متعطل يعيشون على اعانات الجمعيات الخيرية ..

والانتاج الرأسمالى يعنى بالجمال أكثر مما يعنى بالجودة ،ولا يهمه ارتفاع الاسعار ويتجه نحو السلع الاستهلاكية بنهم شديد. أما الانتاج الاشتراكى فيوجه الى تحديد التكلفة وتحديدالانتفاع ويراعى أن يكون الانتاج فى خدمة الملايين وعلى أوسع نطاق وفى مقدور الكافة من المواطنين ، ولهذا كان محتوما أن يتجه هـــذا الانتاج الى رفع الدخول ليستطيع أكبر عدد من المواطنــين أن يحصل على أفضل الخدمات من انتاج الملايين فى أقرب وقت ..

فى سنة ١٩١٨ بدأت التجربة الاشتراكية فى انجلترا ،ووضعت أسسا صالحة لمستقبل الفرد العادى ، وتدخلت الدولة بما يحقق الصالح العام ، ونفذت مشاريعها فى هذا المجال فى آناة وهدوء.. ولكن .. انجلترا تعتمد فى تخطيطها الاقتصادى على المستعمرات والكومنولث .. فهل لدينا شىء من ذلك ؟ هل لدينـــا الوعى الثقافى المعضد للوعى الاقتصادى ..؟

هذه وأمثالها حقائق ينبغى ان ننشرها بين الناس بأسلوب مبسط حتى يدركوا سلامة اشتراكيتنا ، ولكى يكونوا حراســا عليها .. وتلك كما قلت سابقا مسئولية المثقفين ..

***

نستطيع أن نتجنب التعقيد العلمى حين نتفهم اشتراكيتنــا العربية على أنها ذات مقومات أربعة هى :

١ ــ الكفاية والعدل   ٢ ــ توسيع قاعدة الملكية

٣ ــ الاهتمام بالانسان   ٤ ــ زيادة الانتاج

وان هذه المقومات لازمة فى قطاعات الزراعة والصناعةوالتجارة والخدمات ونحو ذلك ، واننا لو أصلنا اشتراكيتنا على هــذه الاصول ألفيناها أسرع فى ضمان تقدمنا بعكس الرأسماليةالتى

تدعو الى البطء والجمود والعمل فى حيز فردى ضيق . ولو استطعنا ان نبشر بهذه المبادىء بين المواطنين لامكن ان نرتب عليها نشر المبادىء السياسية والاجتماعية ، ونحن على ثقة - وقتئذ - من حصولنا على أعظم النتائج .. فيمكن على سبيل المثال أن يدرك الفرد العادى الظروف التى يمليها علينا وجود اسرائيل سواء من ناحية خنقها اقتصاديا أو من ناحية افساح المجال امام الاقتصاد العربى فى الدول الافريقية النامية ، لان

هدف اسرائيل وصانعيها لم يكن مجرد اقتطاع مساحة من الارض العربية ، بل كان القصد البعيد من ذلك أن يملا هؤلاء المغامرون. وشذاذ الافاق جونا العربى بالمنتجات الصناعية الاسرائيلية والاجنبية لاننا فى زعمهم أمة من الفلاحين لانتقن المهارة اليدوية ، ولقد كان ذلك احدى الدعايات الضخمة التى حفزت الوف المهاجرين الصهاينة قاصدة اسرائيل .

ولقد فطنت الثورة الى هذه المسألة ودوافعها ، فشجعت حركة التصنيع بكل قوتها ، ولم يقف اهتمامها عند حدود الصناعات الاستهلاكية بل شجعت على الصناعات الثقيلة ، واصبح فى الامكان ان يكفينا انتاجنا الصناعى وان نتحول فى القريب العاجل الى دولة مصدرة - وان كنا قد خطونا فى هذا السبيل شوطا لا بأس به . ويكفى أن نعلم أننا كنا نستورد قبل الثورة ابرة الخياطة فأصبحنا الان ننتج ماكينة الخياطة ، وامتلات اسواقنا بالمنتجات المحلية من الادوات الكهربائيةالمنزلية التى كانت ترد من الخارج وكانت وقفا على بيوت الاثرياء .. فأصبحت الآن فى مقدور ذوى الدخل المتوسط .

ومن المهام الملقاة على المثقفين أيضا أن يحملوا الدعوة الى سوق عربية مشتركة تقاوم النفوذ الصهيونى ، كما انها فى نفس الوقت هى البداية الطبيعية لوحدة المصالح وبالتالى للوحدة الكبرى التى ستفرضها حتمية التاريخ عاجلا او آجلا .

ومهمتهم كذلك أن ينادوا بالدعوة بأن يكون بترول العرب للعرب حتى يكون الى جانب مصادر القوة الاخرى البشرية والمادية والادبية والموقع من عوامل تدعيم الشخصية العربية فى المنطقة كلها وفى العالم بأسره ، ويكفى أن نعيد الى الاذهان ماحدث ابان اغلاق قناة السويس اثر العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ وانقطاع البترول كيف أصبحت العربات والالات فى أوروبا كتلا هامدة من الحديد ، وكيف اضطربت حياة الناس اعظم اضطراب .. فما معنى هذا ؟..

معناه اننا بحاجة الى ان نتفهم مصادر قوتنا ، وأن نستغل ذلك فى نيل مآربنا ، وانتصار قضايانا العادلة ، والا استحالت نقاط القوة فينا الى ثغرات ضعف ، وهذا ماتعمل الدول الاستعمارية جاهدة على الاستفادة منه .. ولعل من الخير أن أسوق هنا رأيا لكاتب أجنبى هو م. بروكس صاحب كتاب « البترول والشرق الاوسط » يقول بروكس :

« ويرجع مايوجه من ضغط شديد وارهاب الى الحركة الديمقراطيةالعربية كماهى الحال فى بلاد أخرى الىاعتبارات اقتصادية واستراتجية وسياسية ، فعلى حين أن ارتفاع مستوى المعيشة للشعوب العربية لا يحدث الا على حساب ما يحصل عليه الاقطاعيون من أرباح وحصص ، فان المطالبة بالاستقلال — وهى تتحد اليوم مع الكفاح فى سبيل رفع مستوى المعيشة — تهدد تهديدا مباشرا القواعد الحربية التى يعدها الاستعمار الانجلو أمريكى — ونمو الروح الكفاحية بين القوى الشعبية فى البلاد العربية — فى الوقت الذى تشتد فيه حدة الازمة التى تواجهها الراسمالية البريطانية والامريكية ، يفسر الهجوم المتكررالشنيع عليها وشعور بريطانيا وامريكا بضرورة العمل السريع ،والمناورات الجديدة التى تستتر وراء حركات بريطانيا وامريكا فى هيئةالامم المتحدة وفى البلاد العربية نفسها .. وهكذا أصبح للبترول فى

الشرق الاوسط أهميه جديدة فهو يمثل امتزاج الاهمية الاقتصادية والاستراتيجية .

والى جانب انه يعتبر موردا لارباح جديدة كبيرة وسوقا جديدة لاستثمار رأس المال فقد خص بدور جوهرى فى حركة الانعاش الاوربى »

***

ينبغى أن يدرك المهيمنون على الثقافة الاقتصادية فى بلادنا أن معركة الاستعمار فى مقاومة الاشتراكية العربية ستكون أعنف المعارك التى سنواجهها ، ذلك لان هذه الاشتراكية تهدد كيانه فى المنطقة . وتهز عروش أعوانه وقصورهم هزا عنيفا جبارا . انها بالنسبة له ولهم معركة حياة او موت .. ذلك لان اى نجاح تحرزه اشتراكيتنا سيؤلب الشعوب العربية جميعا على أنظمة الحكم العفنة فى الوطن العربى . وستمتد النار الى هشيم الرجعية والى سلالات الخيانة والى أجنحة الحريم والقيان والغلمان فتحصدها حصداً ..

وعندما يتحقق النصر للاشتراكية العربية تكون افاق الوحدة الشاملة ، الوحدة الحقيقية المؤسسة على نظام اجتماعى موحد، قد بدت على مرأى العين جميلة مشرقة أخاذة .

لهذا ، فاننا نضع فى أعناق أهل الاقتصاد أمانة غالية حين نطلب اليهم أن يبشروا بهذه الاشتراكية ، وان يدركوا أن أنظار العالم تتجه الينا فى هذه الفترة كما اتجهت من قبل الى محاولتنا فى تطبيق قانون الاصلاح الزراعى وكما اتجهت من قبل فى محاولاتنا لادارة القناة وكما اتجهت من قبل فى انتظار نتيجة عمل جديد تحملنا اياه مسئوليات التطور

ولى فى ختام هذا الفصل همسات خفيفة اهمس بها فى آذان المثقفين من ذوى الفكر الاقتصادى

ان خصوم الاشتراكية من المثقفين أشد خطرا عليها من الاقطاعيين

والرأسماليين لانهم قادرون بحكم مناصبهم وتأثيرهم على أن يخذلوها وأن يشككوا الناس فيها وأن يشيعوا عـــدم الثقة فى المســـتقبل المأمول منها ٠

ان عقليتنا ما زالت تخضع لمؤثرات رأسماليه انحدرت اليها من العهود السابقة ، فينبغى أن تمتلىء العقول بمفاهيم جديدة ٠٠ والا عشنا في المجتمع الاشتراكى بعقليات رأسمالية ، وسيؤدى ذلك الى ازدواج فى التفكير ، وتناقض فى العمل وتذبذب فى السلوك ٠

ان الخطأ فى المجتمع الاشـــتراكى حجمه كبير ٠ لان التطبيق يشمل أكبر عدد ممكن من الناس بعكس الخطأ فى النظام الرأسمالى فهو عادة فى حدود فردية ضيقة ولهذا فان واجب الاقتصاديين الذين يتولون التخطيط والتنفيذ والرأى يقتضيهم أن يقتلوا المسائل بحثا. وألا يغامروا ببداية لا يقتنعون بها حتى لا تنتهى الامور نهاية وخيمة

وفى اعتقادى ان خير ما نتســـلح به جميعـــا أن نؤمن ببلدنا وبأنفسنا وأن نكون أمثلة صادقة للاشتراكية قبل أن ننادى بها من حولنا ، هذا واجب عام أما الواجب الخاص فهو أن نضع فى المراكز القيادية أصلح الامثلة وأقواها **وعيا** وأعظمها **اخلاصا** وأعمقها **تأثيرا** وتلك هى عناصر الثقافة الاصيلة كما حدثتك عنها من قبل ـ فليس يكفى أن نزن المرء بميزان الكفاية وحدها ، انما نضيف الى ذلك ـ

فى عملية البناء الجديدة ـ عنصر الايمان بالمبـادىء ، حتى نضمن وجود الحافز ، وبالتالى نتغلب على ما يمكن أن تعاب به اشتراكيتنا من خنق لدوافع الاجادة ٠٠

لهذا ينبغى أن يدرك المهيمن على قطاع اقتصادى انه ليس موظفا حكوميا يخضع لميقات حضـــور وانصراف وروتين بل هو مسئول مسئولية كاملة ، هو قائد هذا القطاع ، واذا انصرف القائد الى نفع شخصى أو توانى لحظة واحدة عمن يتصدى لقيادتهم أخفق فى أداء رسالته ٠٠

وأعتقد أننا بحكم أصالتنا الروحية نفهم معنى الايمان ، ونقدره حق قدره ، ونعرف قيمته فى هذه المرحلة المتوثبة الخلاقة ٠٠ تلك المرحلة التى يتحدد فيها المصير العربى فى كل شبر من الوطن العربى

هـ ـ فى التعليم

لا جدال فى أن المعلم هو الرائد الاول للثورة الثقافية ، لانه اذا كانت وظيفة الثورة الثقافية صنع النفس وتوجيـــه العقل والتزام المبادىء ونشدان المثل فلعمرى من يمكن أن يفعل ذلك سوى المعلم وهو الذى يتولى أمر أبنائنا منذ نعومةأظفارهم ، ومنذ تسلمهبيوتنا أمر تنشئتهم ، ويتركون له أعنة قيادهم حتى يتخرجوا فى المعـاهد العليا والكليات على أهبة استقبال الحياة العملية ، وحمل إعبـــاء الرسالة الى مجموع شعبنا .

نحن على ثقة مطمئنة أن المدرسة كمجتمع متكامل منظم محدود ، تستطيع أن تتمثل المبادىء الاشتراكية التى ننادى بها ، وتطبقها فى وجوه النشاط المدرسى وفى سير الدرس وفى العلاقات السائدة بين هيئة التدريس والطلاب ، والمعلم مسئول عن خلق الظـــروف الملائمة لتأصيل هذه المبادىء فى قلوبأبنائه ، وتعميق احساسهمبها

ولأمر ما حولنا اسم وزارة المعلم من المعـــارف الى التربيـــه والتعليم ، لان عهدنا عهد مبادىء وتطبيق لهذه المبادىء ، ولا يمكن أن ينهض بهذا كله ذهن يمتلىء فقط بالمعارفوالعلوم ، انما نريد أن تتصل حجرة الدرس بالحياة ، والحياة بحجرة الدرس ، لاننا نفهم الحياة كتجربة كبيرة بما تحفل به من أحداث وأحياء وأفكار ، فاذا لم يكن عملنا فى خدمة هذه التجربة ، انفصلت المعرفة عن الواقع . وصرنا مجموعة من الـكتب أخلق بأن توضـــع على الارفف فى دار المحفوظات !

نحن لا نريد مزيدا من المعارف المتراكمة ، انما نريد أن تخرج هذه المعارف الى النور ، وأن توضع فى خدمة الشعب ، وبذا يكون التعليم نمطا من أنماط الحياة ، موصولا بها ، جامعا لاطرافها، نزاعا لترقيتها . فلفظة « التربية » على ذلك الفهم تحمل فى داخلها معنى ثوريا ، لانها فضلا عن الجانب الانسانى فيها ، تهدف الى ترقية نوع الانسان ، وأن يكون هذا الجيلأفضل مما سبقه من أجيال، ثم يكون الجيل التالى أفضل مما سبقه وهكذا .. وتلك خصيصة تميزأجيال الانسان عن أجيال الحيوان .. الحيوان يحافظ على نوعه والانسان

يحافظ على نوعه ويرقيه ٠٠ وهذه الترقية كما قلت معنى ثورى لو فهم على حقيقته ٠

المعلمون والمتعلمون مسئولون عن بناء النفس والعقل والخلق. وهذا عمل شاق مرهق ، لان بنـاء الرجال ـ كما يقول الرئيس ـ أشق من بناء المصانع ، لان بنـاء الرجال نوع من الخلق والتكوين وقليل من البشر من أوتى حظ الخلق والتكوين ٠٠ والمعلم أحد هذا القليل ٠

تقول مارجريت مير فى كتـاب علم الاجتماع التربوى لبراون ص ١٨٤

«لقد أصبحنا نعتقد اعتقاداراسخا أن من الممكن عن طريق التربية أن نبنى عالما لم يحلم ببنائه أحد قط ٠٠ بل لا يستطيع أحد ممن رضعوا التربية التى رضعناها أن يحلم به ، وعقيدتنا فى ذلك اننـا اذا استطعنا أن ننشىء أطفالنا ليكونوا أحـرارا أكثر مما كنا ٠٠ أحرارا من الشـعور بالاثم ومن الخوف ٠٠ أحرارا من الضـغط الاقتصادى ومن ديكتاتورية الاستغلال والسخرة ٠ ليكونوا مسلحين بما لم نسلح به قط ، مدربين على أن يفكروا وأن يستمتعوابتفكيرهم ٠٠ مدربين على أن يحسوا وأن يستمتعوا بأحاسيسهم حينئذ فاننا نستطيع أن ننتج نوعا جديدا من الجنس البشرى ٠٠ نوعا لم يعش على ظهر الارض من قبل ٠٠ نوعا لم يطبع بطابعنا الحاضر ، وطابعه الوحيد انه هو نفسه ـ فى يوم من الايام حين يكبر ـ سوف يختار طابعه على أساس من نشأته المتحررة » ٠
ذلك يقول ملكها :

وفى مستهل القرن التاسع عشر عندما هزم نابليون بروسيا شر هزيمة لم تجد بروسيا ملجأ الا المعلم ليقيل عثرتها ويأخذ بيدهاوفى ذلك يقول ملكها ٠

« لئن كنا قد خسرنا بعض الارض أو سلبنا قوتنا وهيبتنا،فان وسيلة استعادة هذا أن نربى عقولا جديدة نستطيع بقوتها وعظمتها أن نعوض ما خسرناه ، فعلينا بالتربية والتعليم »

ولقد زادت ظروف الحياة الحديثة عبء المعلم عماكان فى الماضى، لان المدرسة أصبحت بمثابة البيئة الاولى لا البيت ، بعد أن خرجت

الأم الى الحياة العملية لتواجه وزوجها تبعات الرزق ومسئوليات المجتمع ·

تستطيع الدولة أن تنهض بكل شيء ، ولكنها لا تستطيع أن تتغلغل فى أعمق أعماق النفوس بمقدار ما يستطيع المعلم، ان له سلطانا على العقل والقلب لا يدانيه سلطان ، ومن هنا نتطلع الى المعلم فى أن يحرص على تغذية الناشئة بعقائدنا القويمة ومثلنا العليا وأهدافنا النبيلة فى تحرير الانسان لا فى وطننا فحسب بل فى كل بقعة من بقاع الارض من الاستغلال والسخرة والمهانة ··

والمعلم مرجو فى أن يربط بين ما فى الكتاب من معلومات وبين ما فى الحياة من تجارب وأحداث ··

ولا حاجة الى القول بأن العلاقة بين المعلم وتلميذه هى أسمى العلاقات الانسانية كما يقول أفلاطون ، لأنها تقوم على أساس من الحب والمشاركة والفهم وتقدير الفروق الفردية والاستعدادات الفطرية والتجاوب ، ومن خلال هذه العلاقة الوطيدة ينفذ المعلم الى أدق دقائق النفس والعقل ، فيثير الحوافز ويبعث الحماس أنى شاء · يستطيع المعلم مثلا أن يقف عند موقف من مواقف التاريخ أو عند حكمة أو حادثة ذات مغزى أو عند تفوق مرموق لعالم من أسلافنا الاماجد فيضفى على ذلك من روحه ما يلهم التلاميذ قوة ودفعا وحماسا ·

ولا يتوقف نشاط المعلم على ما يجرى داخل حجرة الدرس، والا تحددت علاقته بهذه الجدران ، ان المعلم قادر على أن يحيل المدرسة بأسرها الى حركة ودأب ومثابرة ونشاط ، عن طريق الاذاعة والصحافة والمعرض والمسرح والمكتبة والرحلة والمناظرة والمحاضرة والمقصف وغير ذلك من جمعيات النشاط المدرسى التى أصبح لها فى التربية الحديثة قدر كبير خطير ، لانها فرص ثمينة لغرس الفضائل وبث القيم فى جو مصغر للحياة الخارجية ومماثل لها ·

واذا كنا اليوم فى حاجة الى قادة ودعاة ليبشروا بالتعاليم الاشتراكية ، فان المعلم قادر على أن يتحسس من بين تلاميذه من تلوح عليه أمارات القدرة على احتمال هذا العبء الكبير ، وهو لا محالة سيجد أمثلة صادقة للنجابة والايثار والايمان والوعى والتأثير ، ولقد

شهد تاريخ نضالنا بطولات رائعة خرجت من بين صفوف الطلاب حتى فى المراحل التعليمية المبكرة ، وكلنا نذكر كيف كانت قلوبنا تزداد وجيبا وتشتعل حماسا حينما كانت تمتلىء الشوارع بالمظاهرات ، ويهتف الطلاب بسقوط الطغيان،ويحرقون ترام الشركة البلجيكية وعربات نورنيكروفت البريطانية ويزيلون اللافتات الاجنبية . بل هم الذين أحرقوا صور فاروق وهتفوا بسقوطه فى أوج مجده ، وهم الذين أزهقت أرواحهم فى مياه النيل من فوق كوبرى عباس عام ١٩٤٦ ، وهم الذين كانوا يعودون الى آبائهم أشلاء ممزقه بيد رسل باشا .. وهم .. وهم ..

ولعل من الخير أن أقتطف لك هنا بعض مشاعر الطالب جمال عبد الناصر لتدرك كيف تظل الاحاسيس الوطنية تعمل وتعمل وتتفاعل حتى يقدر لها الله أن تنطلق فاذا هى بركة على هذا الوطن وخير عميم .. يقول « كنت طالبا أسير فى صفوف المتظاهرين الذين كانوا يطالبون باعادة دستور سنة ١٩٢٣ وأطوف مع وفود الطلبه على زعماء مصر فى منازلهم لاقناعهم بالاتحاد من أجل مصر – ولكننى عاجز مثل كثيرين غيرى ممن وجدت نفس البذور كامنة فى أعماق صدورهم عن أن أحدد الوقت الذى بدأت فيه هذه الافكار تنمو فى رأسى .. أليس من الواضح أن هذه البذور زرعت فى نفوسنا منذ ولدنا وانها أمل كامن فى عقلنا الباطن خلفه فينا الجيل السابق »

***

لقد فطن أسلافنا الى قيمة العلم والتعلم وتركوا لنا فى مجال التربية دستورا قويما يمكن أن نفيد منه فى خلق البطولات ، وهى فى صميمها تتفق مع أحدث النظم . يقول الرسول (ص) « علموا أولادكم،فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم» وكان صلى الله عليه وسلم يشجع التعليم بعمله وقوله ، فقد كان يطلق سراح الاسرى المتعلمين من الكفار اذا علموا بعض المسلمين القراءة والكتابة ، بل سأل صلى الله عليه وسلم الشفاة العدوية أن تقوم بتعليم زوجه السيدة حفصة القراءة والكتابة .

وقال على بن أبى طالب لكميل « يا كميل العلم خير من المال . العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، . والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالانفاق »

ويقول ابن خلدون « ان الانسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء وغير ذلك وانما تميز عنها بالفكر ٠٠ وعن هذا الفكر تنشأ العلوم والصناعات »

وقيل لأبي عمرو بن العلاء « هل يحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ قال : ان كان يحسن به أن يعيش ، فانه يحسن به أن يتعلم » ٠

ويقول الغزالى فى الاحياء : « العلم يقتنى كما يقتنى المال : فمن علم وعمل وعلم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماء فانه كالمسك الذى يطيب غيره وهو طيب ـ والذى يعلم ولا يعمل كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال من العلم ، وكالمسن الذى يشحذ غيره ولا يقطع والابرة التى تكسو غيرها وهى عارية ، وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهى تحترق » ٠

ويقول عمر بن عقبة لمؤدب ولده : « ليكن أول اصلاحك لولدى اصلاحك لنفسك ، فان عيونهم معقودة بك فالحسن عندهم ماصنعت والقبيح عندهم ما تركت » ٠

***

وفى ثورتنا فى مجال التعليم ينبغى أن نضع بعض الامور الهامه فى الاعتبار :

● من ذلك أن نعطى للمعلم حقه كاملا ، لانه ـ وهذه صراحة أليمة ـ لم يأخذ حقه من العناية بمقدار يتكافأ مع مسئوليته الضخمة

● ينبغى أن نهتم كثيرا باخراج الكتاب المدروس بحيث يبدو مشوقا جذابا ، حتى يؤثره التلميذ على المجلات المصورة التى لا تفيده بل قد تضره ٠ كما ينبغى أن يتجدد الكتاب بنفس السرعة التى تتجدد بها وجوه الحياة وأن تصدر ملاحق للكتاب تتمشى مع كل حدث خطير، فمثلا ٠٠ قوانين يوليو الاشتراكية سنة ١٩٦١ ستبقى بعيدة عن الكتاب المدرسى عاما كاملا فى أحسن الفروض ٠٠ فلماذا لا يصدر بها كتاب خاص ، ولماذا لا تحذف أجزاء غير هامة من المقرر وتحل هذه القوانين محلها ٠٠ كل ما أقصده ألا يجمد الكتاب المدرسى بحال من الاحوال ٠٠ لاننا جيل ثائر ، يجدد دمه فى كل خطوة يخطوها نحو الهدف الكبير ٠

● الوسائل التعليمية آن لها أن تتطور بما يتمشى مع الطرق الحديثة فى التربية ، وأن تخرج آلات السينما والتصوير وغيرها من عهدة المخزن حتى لا تأكلها الرطوبة والعنكبوت !

● المدرسة بعد انتهاء اليوم المدرسى ينبغى أن تتحول الى خلية نشاط من نوع جديد ، فتتحول الى ناد ثقافى لسكان القرية أو الحى، وتوضع برامج مدروسة لهذا الوقت ، وألا تغلق المدرسة أبوابها فى المساء بحال من الاحوال فنحن فى أمس الحاجة الى كل دقيقة من عمر الوطن حتى نعيد بناءه جميعا فى سرعة ونشاط .

● أقترح ألا يمنح شخص شهادة الثانوية العامة الا اذا أثبت امتحان خاص أنه قد أزال الامية عن اثنين من المواطنين ، وألا يمنح شخص شهادة الجامعة الا اذا أزال الأمية عن خمسة من المواطنين..

ويعقد لهؤلاء المواطنين امتحان فى موعد معين وفى أماكن معينة وأن يطلق على هذا البرنامج اسم خاص ، وتهتم به الصحف والاذاعة ودور النشر والوزارة المعنية بالثقافة والفكر ، وألا يقتصر على محو الأمية القرائية أو الكتابية بل على نشر الوعى الثقافى بين المواطنين، بحيث نضمن لمكاسبنا الثورية أن تصل الى أغوار النفوس ، فنأمن عليها من الضياع والتفريط الناجمين عن الجهل ونقص الادراك .

بهذا ننشر الخير والنور فى أرجاء وادينا ، ونكون قد فجرنا كل الطاقات البشرية المعطلة ، والتى ران عليها النسيان حقباطوالا.

● ينبغى أن تنشىء النقابات أندية لها فى القرى والاحياء الغفيرة ، وأن تصبح هذه الاندية مراكز اشعاع ، وأن تزود بالمكتبة وأدوات العرض السينمائى والراديو وأن تزورها كل يوم سيارة اعلامية متنقلة وأن يكون المتعلمون من أبناء القرية الذين يقيمون بها رسل الثقافة فيها ، وأن تنظم زيارات للمسئولين فى النقابات والمحافظات حسب فروع تخصصهم لينقلوا الوعى الى أكبر عدد ممكن من الافراد وأن تعقد مسابقات بين هؤلاء الافراد وتقدر لها جوائز مادية وأدبية . بهذا تكون النقابات والهيئات قد أدت دورها نحو الشعب ، وبهذا أيضا لا ينحصر نشاطها فى خدمةطائفة معينة،

لان فضلنا في المجتمع الاشتراكي يقاس بمقدار ما نؤديه من رسالة نحو من حرموا فرص العيش الكريم ونور العلم العظيم .

و ـ في التعبئة الروحية

من نافلة القول أن نذكر أن كل حضارة لا تزدهر الا على أساس من القيم الروحية التي أتت بها الاديان ، والتي نادى بها أنبياء شهدت لهم عصور التاريخ بالسمو والعظمة والرجاحة ، وهذه القيم الروحية هي التي تحفظ للانسان انسانيته ، وتهيىء له سعادته النفسية ، وتفتح عيونه على ينابيع الخير ، وتحقق له السلام في داخل ذاته ، وبذا يصبح قادرا على أن ينشر الخير بين الناس ويحقق السلام في خارج ذاته .

ان ضعف الوازع الديني في أي شعب يؤدي الى طغيان النزعه المادية في كل نواحي الحياة ويمكن للاثرة ، ويفتت عرى الاخلاق ، فاذا انعدم هذا الوازع بالكلية انطلقت الغرائز من عقالها ولم يقف حائل بينها وبين تدمير كل شيء في سبيل مآربه .. تلك حقيقة شهد بها التاريخ قديما ونشهدها الان بنسب متفاوتة في الشرق والغرب على السواء .

ان التربية الروحية تخلق الحافز النبيل ، والحافز النبيل يضمن للوعي الثقافي أن يكون مخلصا وأن يكون مؤثرا حسبما استخلصتنا لمفهوم الثقافة في بداية الكتاب .

لقد مر بنا في أعناق المثقفين قضايا عامة وقضايا خاصة ، وانه لن يهيأ النجاح في واحدة منها الا اذا كان للفرد من نفسه وازع ورقيب ، وأننا اذا كنا نريد للمثقف وضعا قياديا في المجتمع فان من أخص مقومات القيادة ايمان القادة بمهمتهم وبمبادئهم وبأهدافهم وبالعمل الثوري الذي يتولون زمامه سواء في التخطيط أو التنفيذ أو المشورة . كذلك يلزم أن يكون القادة مخلصين للرسالة التي يؤدونها وأن هذا الاخلاص هو الذي يجعل للخبرة قيمة أصيلة ويضمن لها الفعالية ، ويغلب المصلحة العامة على الربح الشخصي الذي تتميز بها المجتمعات الرأسمالية ، لان الاشتراكية يملكها

المجموع ، ولا يصلح المجموع الا بصلاح الفرد ولا صلاح للفرد الا اذا صلحت نفسه .. وهـذا هو دور التعبئة الروحية التى نريدها أن تروض النفوس على الايثار وحب الآخرين وبذل الجهد فى سبيل النفع العام ، وتغرس فيها الشعور بالسعادة كلما سعد المحيطون بها

* * *

لم يعد مقبولا أن يحصر خطباء المساجد والمعابد أحاديثهم فى دائرة مغلقة لا تتجاوز التخويف بالويل والثبـور وعظائم الامور ، وجهنم ذات السعير ..

كذلك لم يعد مقبولا أن نفصل الدين عن الحياة ، والا كنا نريد للناس عزلة يقبعون فيها بعيدا عن المجتمع ، فما الدين فى جوهره الا استجابة للدوافع النبيلة التى تملأ الحياة اشراقا وتألقا وسعادة ذلك لانه تنظيم للحياة ، وحث على السعى فى مناكبها ، والاخـذ بنصيب منها ، والاحتفال بكل ما يحفظ للفرد كرامته ، ويرتفع به الى مستوى معاشى لائق يرد عنه مذلة السؤال ويؤمنه الحاجة والفاقة والخوف .

الدين رسالة الله الى الارض لينظم أهلها أسباب أرزاقهم، ويكفل العدالة فى توزيعها عليهم ، ويأخذ من قويهم لضعيفهم ، وبذا ينتشر الحب ، وتذوب ثلوج الانقباض ، وتختفى مرارات الكراهية والحقد

المال مال الله ، والناس رعاة لهذا المـال ، فاذا اكتنزوه عمن يستحق فهم آثمون ، واذا أسرفوا فى تبـذيره فهم آثمون ، واذا استغلوا به اخوتهم من بنى الانسـان فهم آثمون .. فلا مناص من أن يعطى المال جزاء **الكفاية** وأن يؤخذ المال **بالعدل** ، وقد نظم الدين قواعد الاخذ والاعطاء أى أنه ضمن للمجتمع الكفاية والعـدل .. والكفاية والعدل هما خلاصـة اشتراكيتنا الوليدة .. رعاها الله وسدد خطاها .

تلك أولى النقاط الجوهرية التى ينبغى أن يحتفل بها دعاة التوعية الروحية فى المجتمع الجديد حتى يثبت فى الذهن واقع اشتراكيتنا وأنها اشتراكية مؤمنة ، تستمد أصولها الاولى من عقيدة راسـخة أثبتت الايام صلاحيتها وسلامتها وخلودها ، وعلى هدى هذه الاسس

الروحية يمكن للناس أن يتقبلوا المبادىء الاجتماعية التى ننادى بها، فلا يشعر الغنى المعطى بكراهية الفقير الآخذ ، ونضمن للعدالة أن تتحقق فى جو من الصفاء والسلام ، بينما أريقت فى سبيلها فى بلاد بعيدة الدماء وأزهقت الارواح .

***

نحن نعيش اليوم فى عالم تسود بعض أجزائه وثنية مدمرة ..
الكتاب المسطور أنزله ماركس ولينين وانجلز ..
وفقه التعبد مادية ملحدة.. فلا وجود فى زعمها لله . والحياة مادة بحتة والدين أفيون الشعوب يخدرها حينا ثم يقضى عليها .

والدين أفيون الشعوب يخدرها حينا ثم يقضى عليها .
ورسالة العمال الشيوعيين هى القضاء على الدين وأتباعه ..
الحياة التى نحياها هى كل الحياة فلا بعث ولا نشور ولا حساب .

بمثل هذه العبارات مضى الاسقف الكندى الذى زار بلادنا فى الشتاء الماضى بعد جولة فى أنحاء ألاتحاد السوفيتى .. وأتيح لى أن أصحبه خلال زيارته لبلادنا ، ولشد ما هالنى أن أسمع من الرجل أن هناك متحفا اسمه Anti God Museum أى متحف الالحاد ، وكيف تعرض بهذا المتحف صور تعبر عن أحداث تاريخية متصلة بالدين ولكنها توحى بعكس ما يريد الدين .. صورة لفارس يمسك بسيف يغمده فى قلب انسان وتحت الصورة كتب « هكذا انتشر الاسلام » ثم .. صورة لامرأة خليعة .. وتحتها كتب « غفر لها المسيح .. فلا خطيئة » وهكذا .. ثم فى الجانب الاخر..العلوم هى اله القرن العشرين ، هى التى توصل الى الافلاك والابراج وتقهر الطبيعة وتتحدى الفقر والجوع والمرض والحرمان .. لوحات عديدة تصور هذه الاغراض بطريقة خلابة ..

لقد كان يمكن أن يهون الامر لو ان هذه الافكار دعوة فلسفية تقتصر على الفيلسوف ومريديه، ولكنها للاسف الشديد دعوة اجبارية والزامية ، بحيث يبدو المتدين فى هذه الاوساط شاذا منحرفا .

كذلك نجم عن هذه الدعوة تأثير على الجوانب الاقتصادية

والاجتماعية فى حياة الناس ، ففى الجانب الاقتصادى أهدرت الملكية الفردية فى جميع صورها الانتاجية ، لان مصادر الرزق جميعها ملك للدولة ، أما الشعب فمجموعة من التروس العديدة فى الآلة الكبيرة، بلا خيار ولا اختيار ، فلا كرامة فى نظر الشيوعية للفرد كفرد ،ولا حافز لديه كانسان شاعر بانسانيته يخطو فى الحياة على هدى من بصيرته ووجدانه ، لان الفرد وسيلة والدولة غاية ٠

والرياح التى تهدد العقيدة لا تهب من جانب المذاهب السياسية والاقتصادية فقط ، بل هناك من الافكار والدعوات الفلسفية ما يكفى لتحطيم الايمان وبخاصة عند من يغريهم التحلل ويخلبهم التمرد ٠٠

فالوجودية كمذهب فلسفى ترى الله مخلوقا من صنع الانسان نفسه ، وبالتالى ليس جديرا بالطاعة والتقديس ، والدين — ان كانت له ضرورة — محدود أما الوجودية فانطلاق كامل الى غير نهاية بلا تعاليم ولا وصايا ولا قيود ٠٠ بل ان العقل نفسه فى نظر الوجودية أداة مشحونة بأفكار ارستقراطية صنعها فلاسفة عاشوا فى الابراج العاجية لتصدير هذه الافكار الهدامة ، وعلى الجملة ،فالوجودى عبد هواه ، قد يوافق هذا الهوى على ذكر الله فى الصباح ثم يوافق على عصيانه فى المساء ما دامت مبررات الذكر والعصيان تجد لها فى اللحظة المعينة صداها الحبيب الى نفسه ٠٠ نفسه دائما ٠

***

وعلى الذين يضطلعون بالوعظ الدينى والقيادة الروحية أن يدرسوا هذه المذاهب دراسة جادة ، وأن يميطوا اللثام عما فيها من الحاد مدمر يخلب الشباب فى مرحلة من مراحل العمر متميزة بالقلق، وتعشق الجديد ، والثورة على الظروف المحيطة ، حتى ولو كانت هذه الظروف خيرا وأبقى ٠

ولهذا أقترح أن يتاح لمن يشرفون على التوعية الروحية أن يعقدوا الندوات وينشروا الكتب ويركزوا الحديث حول فساد هذا النظام وعدم ملاءمته لظروفنا ، فضلا عن المقارنة العلمية الجادة التى تكشف عن سلامة عقائدنا وصلاحية ديننا لكى يكون دستورا لمجتمع متحضر متوثب ترفرف عليه الرفاهية ٠

وفى تاريخنا الروحى نماذج من الاشتراكية الواعية التى ترى فى مال الغنى حقا للمحروم ، وترى الزكاة تزكية وتطهيرا ويكفى أن نستلهم من قول الرسول (ص) « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » ومن أقوال الصحابة كأبى ذر ومن أقوال أئمة المسلمين ما يفيد فى انضاج الفكر الاشتراكى بطريقة التوعية الروحية .

***

ولعل من بشائر الخير أن تصدر فى الشهور الاخيرة قوانين تنظيم الازهر ، تستهدف اخراجه من عزلته ، واشراكه فى الحياة العملية حتى يحمل هذا العبء الضخم فى بناء المجتمع الجديد كما حمله من قبل فى ريادة الشعب نحو التحرر ودفع الطغيان ، واشاعة الضياء .

وقد قدر أسلافنا ان الثقافة الدينية لا تناوىء بحال من الاحوال الثقافة الدنيوية ، فكانوا يجمعون بين دراسة الدين والفلسفة والطب والعلوم ، لان كل نفع للانسان بطريق هذه العلوم الدنيوية يدنو بهم من رضا الخالق عز وجل .

وانى أتطلع ببصرى من وراء الغيب لاشهد خريج الازهر وقد درس الطب والهندسة والعلوم ثم مضى يحمل رسالته الروحية ليبشر بها فى أنحاء العالم سواء فى الداخل أو فى الخارج فيبرهن بأسلوب حياته وأنماط سلوكه على تفتح الفكر الاسلامى وواقعيته وتوثبه .. ويبرهن فى الوقت نفسه على أن القيمة الحقيقية للمبادىء أن تحل فى القلب والعقل محل الايمان — وانه فى سبيل هذا الايمان يضع خبرته ومهارته فى خدمة المسلمين أينما كانوا .. وذلكم هو صميم الدعوة الإسلامية فى بداية ظهورها فلقد استطاع المسلمون فى أقل من ثلاثين عاما أن يصنعوا ما يشبه المعجزة ، لقد وحدوا الامة العربية من أقصاها الى أقصاها ، وانتشروا — بهذه الروح — فى كل أصقاع الارض ، وتمكن الدين من أن يحتضن بعد ذلك الامم الاخرى فيما بين المحيط الاطلسى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد ، ولان هؤلاء كانوا دعاة أولا وفاتحين ثانيا فلقد أقبل الناس عليهم قبل أن يقبلوا هم عليهم ، وكانت أفكارهم سباقة دائما ، وكان لها من القوة بحيث

تهدد أعتى الجيوش المقاومة ٠٠ ولم تكن هذه الافكار سوى مبادىء لبناء مجتمع متحرر سليم ٠

***

وخير ما اختتم به هذا المقال هو قول الرئيس فى حفل عيد العلم عام ١٩٦٠ : « واذا كان العلم هو الذى يصنع القوة والعلم هو الذى يحقق زيادة الانتاج ، فان العلم أيضا هو القادر على تمكين القيم الروحية والمعنوية من اقامة اطار يشد المجتمع كله بعضا الى بعض ويربط امكانياته كلها برباط الوحدة والتضامن ٠

وان عالمنا لتشتد حاجته اليوم الى تمكين القيم الروحيةوالمعنوية من مباشرة دورها الكبير ، ذلك ان الشوط قد مضى به بعيدا فى مجالات القوة وزيادة الانتاج فى حين تقاعد المجال الروحى والمعنوى عن المضى الى نفس البعد ، وأن الازمة التى يعيش فيها عالمنا لتحمل مظاهر هذا الوضع الخطير ٠ ان أبرز أسباب أزمة عالمنا اليوم أن طاقاته المادية غلبت طاقاته الروحية وأصبحت عضلاته أقوى من عقله ٠٠

واذا كان من بشائر التطورات الاخيرة فى الميدان الدولى أن ثمة وعيا كبيرا اليوم للاخطار التى تتعرض لها البشرية كلها اذا ما استعملت هذه القوى الهائلة الجديدة بطيش ورعونة وبدون ضابط من القيم الروحية والمعنوية فان علينا أن نعى عظة هذا التطور وأن نستفيد منه داخل مجتمعنا ٠٠ ذلك أن قوة التقدم العلمى والقوة الناشئة من زيادة الانتاج يمكن أن تصبح مصدر خطر ما لم تستطع القيم الروحية والمعنوية أن تساير خطاها بل تسبقها لتمهد لها ٠

والعلم فى المعامل ضرورة والعلم فى المصانع ضرورة ولكن العلم فى قلوب الناس وفى ضمائرهم ألزم الضروريات »

مصادر الكتاب

- خطب السيد الرئيس فى المناسبات القومية والوطنية ٠
- فلسفة الثورة للسيد الرئيس
- فضل العرب على الانسانية للدكتور عزة مريدن
- محاضرات العلامة توينبى أثناء زيارته للجمهورية العربية المتحدة
- التـــــلمود
- مقررات مؤتمر التعبئة القومية للمعلمين عام ١٩٥٨
- تاريخ الاسلام السياسى للدكتور حسن ابراهيم حسن
- تحت شمس الفكر لتوفيق الحكيم
- علم الاجتماع التربوى (مرجريت ميد)
- البترول والشرق الاوسط (م٠ بروكس)

هيئة قناة السويس

أثر قناة السويس فى الاقتصاد العالمى

تختصر قناة السويس طريق البواخر بين الشرق والغرب، اذ تجنبها الدوران حول رأس الرجاء الصالح فتقتصد بذلك بين ١٧٪ و ٥٩٪ من المسافة بين مختلف القارات ، كما انها تحقق وفرا فى الوقود تتراوح نسبته بين ٥٠٪ و ٧٠٪ تبعا لحمولة السفينة وسرعة سيرها .

ان حركة البضائع عبر قناة السويس خير مقياس لتطور اقتصاديات البلاد وخاصة الاوروبية منها . فكلما ازداد حجم البضائع العابرة وكلما نشطت حركة الملاحة فى القناة . ازدهرت الاسواق وراجت التجارة العالمية . أما اذا هبطت حركة الملاحة فى القناة لسبب من الاسباب أو تعطلت كلية كما حدث ذلك اثر العدوان الثلاثى فى مطلع نوفمبر ١٩٥٦ ،فانه ينتج عن ذلك اضطرابات عنيفة تزعزع اقتصاديات بلدان العالم أجمع ويترتب عليها أوخم العواقب .

وان نظرة واحدة الى ما انتاب أوروبا والشرق الاقصى من أزمات خلال فترة تعطل الملاحة فى القناة اثر العدوان لجديرة بابراز الدور العظيم الذى يلعبه هذا المرفق على مسرح الاقتصاد العالمى .

المصحح ــ م ــ د



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥

العدد ١٦٠ الثمن قرشان